

العبرات

بقلم

مصطفى لطفى المنفلوطى

وهو مجموع روايات قصيرة محزنة بعضها موضوع وبعضها مترجم

أول مارس سنة ١٩٢٠

يطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على — بمصر

المطبعة الرحمانية

الى فراشه وسقطتْ بهِ في مكانه ، فما رِمتُ[1] مكانى حتى رفع رأسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكباً عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع الى شأنه الذى كان فيه

فأحزننى أن أرى فى ظلمة ذلك الليل وسكونه هذا الفتى البائس المسكين منفرداً بنفسه فى غرفة عارية باردة لا يتقى فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو همّاً من هموم الحياة أو رزءاً من أرزائها قبل أن يبلغ سن الهموم والأحزان من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً ، وقلت لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع[2] الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين أضلاعه ذوْباً فيتهافت لها جسمه تهافت الخِباء المقوّض ، فلم أزل واقفاً في مكانى لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى الى فراشه ، فانصرفتُ الى مخدعى وقد مضى الليل إلاّ أقله ولم يبق من سواده فى صفحة هذا الوجود الاّ بقايا أسطر يوشك أن يمتد اليها لسان الصباح فيأتى عليها

---

(١) رام مكانه زال عنه وفارقه

(٢) الضارع الضعيف النحيف

ثم لم أزل أراه بعد ذلك فى كثير من الليالى إمّا باكياً ، أو مطرقاً ، أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطوياً على نفسه فى فراشه يئن أنين الوالهة الثكلى ، أو هائماً فى غرفته يذرع أرضها ، ويطوف بأركانها ، حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسيه باكياً منتحباً ، فأتوجع له وأبكى لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أُداخله مداخلة الصديق لصديقه وأستبثّهُ [1] ذات نفسه وأشركهُ فى همه لولا أننى كرهت أن أفجأه بما لا يحب وأن أهجُم منه على سرّ ربما كان يؤثر الأبقاء عليهِ في صدره وأن يكاتمه الناسَ جميعاً ، حتى أشرفتُ عليهِ ليلة أمس بعد هَدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة فظننت أنهُ خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت فى جوف الغرفة أنّة ضعيفة مستطيلة فأزعجنى مَسمعُها وخيل الىّ وهى صادرة من قَرارة نفسه كأنى أسمع رنينها فى أعماق قلبي ، وقلت إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه وقد بلغ الأمر مبلغ الجِد فلا بدَّ لى من المصير إليهِ ، فتقدمتُ إلى خادمي [2] أن يتقدمنى بمصباح حتى بلغت منزله ووقفت على باب غرفته فأدركنى من الوحشة عند دخولها ما يدركُ الواقفَ على

---

(١) استبثه السر طلب اليه أن يبثه اياه

(٢) تقدم الى فلان بكذا أمره به

باب قبر يحاول أن يهبط إليـهِ ليودع ساكنه الوداع الأخير ، ثم دخلت ففتح عينيهِ عنـد ما أحس بى وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً فادهشهُ أن يرى بين يديهِ مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفهُ ، فلبث شاخصاً إلىَّ هنيهة لا ينطق ولا يَطرِف [1] فاقتربتُ من فراشهِ وجلست بجانبـهِ وقلت أنا جارك النازل فى هذا المنزل وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديدا وعلمتُ أنك وحدك فى هـذه الغرفة فعنانى أمرك فجئتك عانى أستطيع أن أكون عوناً لك على شأنك ، فهل أنت مريض ، فرفع يده ببطء ووضعها على جبهته فوضعتُ يدى حيث أشار فشعَرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنهُ محموم ثم أمررْت نظرى على جسمه فإذا خيال سارٍ لا يكاد يتبينهُ رائيه ، وإذا قميص فَضفاض [2] من الجلد يموج فيـهِ بدنه موجاً ، فأمرت الخادم أن يأتينى بشراب كان عندى من أشربة الحمى فجرعتهُ منهُ بعض قطرات فاستفاق قليلا ونظر إلىَّ نظرة عذبة صافية وقال شكراً لك ، فقلت ما شَكاتك أيها الأخ ، قال لا أشكو شيئاً ، قلت فهل مرَّ بك زمن طويل على حالك هـذه ؟ قال لا أعلم ، قلت أنت فى حاجة إلى الطبيب

---

(١) طرف فلان بصره أطبق أحد جفنيه على الآخر

(٢) الفضفاض الواسع

فهل تأذن لى أن أدعوه اليك لينظر فى أمرك ؟ فتنهد طويلاً ونظر الىّ نظرة دامعة وقال : إنما يبكى على الطبيب من يؤثر الحياة على الموت : ثم أغمض عينيهِ وعاد إلى ذهوله واستغراقه ، فلم أجد بدّا من دعاء الطبيب رضى ذلك أم أبى فدعوته فجاء متأففاً متذمراً يشكو من حيث يعلم أنى أسمع شكواه إزعاجَه من مرقده وتجشيمَه خوضَ الازقة المظلمة فى الليالى الباردة فلم أحفِل بأمره لأنى أعلم طريق الاعتذار إليهِ ، فجس المريض وهمس فى أذنى قائلاً : ان عليلك ياسيدى مشرف على الخطر ولا أحسَب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان فى علم الله مالا نعلم ، وجلس ناحيةً يكتب ذلك الأمر الذى يصدره الاطباء الى عمّالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعد ما اعتذرت اليه الاعتذار الذى يريده فأحضرت الدواء وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وأبكى عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى فقال أنت هنا ؟ قلت نعم ، أرجو أن تكون أحسن حالاً من ذى قبل ، قال أرجو أن أكون كذلك ، قلت هل تأذن لى يا سيدى أن أسألك من أنت ، وما مُقامك وحدك فى هذا المكان ، وهل أنت غريب عن هذا البلد أو أنت

من أهليه، وهل تشكو داءً ظاهراً أو همًّا باطناً؟ قال أشكوهُما معاً، قلت فهل لك أن تحدثني بشأنك وتُفضي إليَّ بهمك كما يفضي الصديق الى صديقه فقد أصبحت مَعنيًّا بأمرك عنايَتك بنفسك؟ قال هل تعدني بكتمان أمري ان قسم الله لي الحياة وبتنفيذ وصيتي إن كانت الأخرى؟ قلت نعم، قال قد وثقت بوعدك فان من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك لا يكون كذاباً ولا خائناً

أنا فلان بن فلان مات أبي منذ عهد بعيد وتركني في السادسة من عمري فقيراً معدماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً فكفَلني عمي فلان فكان خير الأعمام وأكرمهم وأوسعهم براً وإحساناً، وأكثرهم عطفاً وحناناً، فأنزلني من نفَسه منزلةً لم ينزلها أحد من قبلي غير ابنته الصغيرة وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً، وكأنما سرّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعد ما تمنى ذلك على الله زمناً طويلاً فلم يدرك أُمنيته فعُني بي عنايَته بها وأرسلنا الى المدرسة في يوم واحد، فأنست بها أنس الاخ بأخته وأحببتها حبًّا شديداً ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبويّ من حين الى حين، فكان لا يرانا الرائي الا ذاهبَيْن الى المدرسة

أو عائدَين منها أو لاعبَيْن فى فِناء المنزل أو هائمَين فى حديقته أو مجتمعَيْن فى غرفة المطالعة أو متحدثَيْن فى غرفة النوم حتى جاء يوم حجابها فلزمتْ منزلها واستمررْت فى دراستى

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحُله إلا ريب المنون، فكنت لا أرى لذة العيش إلاَّ بجوارها، ولا أرى نور السعادة إلاَّ في فجر ابتساماتها، ولا أُوثر على ساعة أقضيها بجانبها جميعَ لذات العيش ومسرَّات الحياة، وما كنت أشاء أن أرى خَصلة من خصال الخير فى فتاة من أدب أو ذكاء أو حلم أو رحمة أو عفة أو شرف أو وفاء الاَّ وجدتها فيها

وإنى أستطيع وأنا فى هذه الظلمة الحالكة من الهموم والأحزان أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التى كانت تظللنا أيام طفولتنا معاً فتشرق لها نفسانا إشراق الراح فى كأسها، وأن أرى تلك الحديقة الغناء التى كانت مراح لذاتنا، ومسرح أمانينا وأحلامنا، كأنها حاضرة بين يدى أرى لألاء مائها، ولمعان حصبائها، وأفانين أشجارها، وألوان أزهارها، وتلك المقاعد الحجرية التى كنا نتخذها منها فنجتمع فوقها على حديث نتجاذبهُ أو طاقة نؤلف بين أزهارها، أو كتاب نقرأه معاً، أو رسم نشترك فى النظر فيهِ، وتلك الخمائل الخضراء

التى كنا نفىء إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من أشواط المسابقة فنشعر بما تشعر به أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها، وتلك الحفائر الجوفاء التى كنا نحتفرها بأيدينا على شواطئ الجداول والغدران فنملؤها ماءً ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التى ألقيناها فيها بأيدينا فنطرب إن ظفرنا بشىء منها كأننا ظفرنا بغُنْم عظيم، وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التى كنا نربى فيها عصافيرنا ثم نقضى الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء وهى تحسو الماء مرّة وتلتقط الحب أخرى، ونناديها بأسمائها التى سميناها بها. فإذا سمعنا صفيرها ظننا أنها تلبي نداءنا

ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا واخاء. أو حبّا وغراماً، ولكننى أعلم انه إن كان حبا فقد كان بلا أمل ولا رجاء، فما قلت لها يوماً اننى أحبها لأنى كنت أضن بها وهى ابنة عمى ورفيقة صباى أن أكون أوّل فاتح لهذا الجرح الأليم فى قلبها، ولا قدّرتُ فى نفسى يوماً من الأيام أن أصل أسباب حياتى بأسباب حياتها لأنى كنت أعلم أن أبويها لا يَسْخُوَان بمثلها على فتى بائس فقير مثلى، ولا حاولتُ فى ساعة

من الساعات أن أتسقط [1] منها ما يطمع فى مثله المحبون المتسقّطون . لأنى كنت أُجلُّها عن أن أنزل بها إلى مثل ذلك ، ولا فكرت يوماً أن أستشف من وراء نظراتها خبيئةَ نفسها لأعلم أىّ المنزلتين أَنزلها من قلبها ، منزلة الأخ فأقنع منها بذلك . أو منزلة الحبيب ، فأستعينَ بإرادتها على إرادة أبويها ، بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل لصورة العذراء الماثلة بين يديهِ فى صومعته يعبدها ولا يدنو منها

ولم يزل هذا شأنى وشأنها حتى نزلت بعمّى نازلةٌ من المرض القاتل لم تَنْشَبْ [2] أن ذهبتْ بهِ إلى جوار ربهِ ، وكان آخر ما نطق بهِ فى آخر ساعات حياته أن قال لزوجته وكان يحسن بها ظنًا « لقد أعجلنى الموت عن النظر فى شأن هذا الغلام فكونى له أُمًا كما كنت له أبًا وأوصيك أن لا يَفقدَ منى بعد موتى إلاّ شخصى » فما هو إلا أن مرَّت أيام الحداد حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه ونظرات غير النظرات وحالاً غريبة لا عهد لى بمثلها من قبل ، فنداخلنى الهمّ واليأس ووقع فى نفسى للمرة الاولى فى حياتى اننى قد أصبحت فى هذا المنزل غريباً ، وفى هذا العالم يتيماً ،

---

(١) تسقط فلان الخبر أخذه شيئاً بعد شىء
(٢) لم تنشب لم تلبث

فانى لجالس فى غرفتى صبيحة يوم إذ دخلَتْ نحوى الخادم وكانت امرأة من النساء الصالحات المخلصات فتقدمتْ نحوى باكية منكسرة وقالت : قد أمرتنى سيدتى زوجة عمك أن أقول لك ياسيدى إنها قد عزمت على تزويج ابنتها فى عهد قريب ، وإنها ترى أن فى بقائك بجانبها بعد موت أبيها ما يَريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكناً هذا الجناحَ الذى تسكنه من القصر ، فهى ترى لك أن تتحوّل إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها تقوم لك هى بشأنه وشأن نفقاتك فيه

فكأنما عَمِدَت الى سهم مَريش فأصابت بهِ كبدى الاّ أننى تماسكت قليلاً ريثما قلت لها سأفعل ذلك ان شاء الله . فانصرفتْ لشأنها فخلوت بنفسى ساعة من الزمان أطلقت فيها السبيل لعبرتى ما شاء الله أن أُطلقها حتى جاء الليل فعمِدت إلى حقيبتى فأودعتُها ثيابى وكتبى وقلت

« قد كان كل ما أسعد به فى هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذى أحببته وأحببت نفسى من أجله وقد حيل بينى وبينهُ فلا آسف على شىء بعده »

ثم انسللت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشعر أحد بمكانى ولم أتزود منها قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من

وراء كِلّتها (١) وهى نائمة فى سريرها فكانت آخر عهدى بها

لعمرك ما فارقت بغداد عن قلى   لو أنّا وجدنا من فراقٍ لها بدا
كفى حزناً أن رحتُ لم أستطع لها   وداعاً ولم أُحدث بساكنها عهدا

***

وهكذا فارقت المنزل الذى سعدت فيه برهة من الزمان فراق آدم جنتَه وخرجت منهُ شريداً طريداً حائراً ملتاعاً قد اصطلحت علىّ مختلفات الهموم والأحزان . فراقٌ لا لقاء بعده. وفقرٌ لا سادّ لخَلّته . وغربةٌ لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ولا معيناً

وكانت معى صُبابة (٢) من مال قد بقيتْ فى يدى من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة فى هذا السطح مسكناً فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة فأزمعت الرحيل الى حيث أجد فى فضاء الله ومنفسح آفاقه علاجَ نفسى من همومها وأحزانها ، فرحلت رحلة طويلة قضيت فيها بضعة أشهر لا أهبط ببلدة حتى تنازعنى نفسى الى أخرى ولا تطلُع علىّ الشمس فى مكان حتى تغرب عنى فى غيره حتى شعَرت فى آخر الأمر بسكون فى نفسى يشبه سكون الدمع المعلق فى محجر العين لا يَفيض ولا يَغيض ،

---

(١) الكلة الستر الرقيق

(٢) الصبابة البقية من الشىء

فقنعت بذلك وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت وقد استقر فى نفسى أن أعيش فى هذا العالم مجتمعاً كمنفرد وحاضراً كغائب وقريباً كبعيد وأن ألهوَ بشأن نفسى عن كل شأنٍ سواه وأن أستعين على نسيان الماضى باجتناب آثاره ومظاهره فلزمت غرفتى ومدرستى لا أترك إحداهما إلا الى الأخرى ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم فى نفسى الا نزوات تعاود قلبى من حين الى حين فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفنىّ فى خلوتى من حيث لا يعلم إلا الله ما بى فأجد برد الراحة فى صدرى

لبثتُ على ذلك برهة طويلة حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التى كانت فى يدى من المال فاذا هى ناضبة أو موشكة. وكنتُ مأخوذاً بأن أهيئ لنفسى عيشاً مستقبلاً وأن أؤدى للمدرسة قسطاً من أقساطها والمدرسة فى هذا البلد حانوت فاس لا تباع فيه السلع نسيئةً. والعلم فى هذا الأمة مرتزقٌ يرتزق منهُ العلماء لا منحةٌ يَمنحها المحسنون. فأهمّتنى نفسى وعلمت أنى مشرف على الخطر ولا أعرف سبيلاً الى القوت بوجه ولا حيلة فعمِدت الى كتبي فاستبقيت منها مالا غنى لى عنه وحملت سائرها [1] فذهبت

---

(١) سائر الشيء باقيه

به الى سوق الوراقين فعرضته هناك يوماً كاملاً فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزيناً منكسراً وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى

فلما بلغت باب المنزل رأيت في فِنائه امرأة تسائل أهل البيت عني فتبينتها فاذا هي الخادم التي كانت تخدُمني في منزل عمي فقلت فلانة ؟ قالت نعم ، قلت ماذا تريدين ؟ قالت لي اليك كلمة فأذن لي بها ، فصعدت بها إلى غرفتي فلما خلونا قلت هات ، قالت مرت بي ثلاثة أيام أفتش عنك في كل مكان فلم أجد من يدلني عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك ، ثم انفجرت باكيةً بصوت عال فراعني بكاؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذي أحبه بأس فقلت ما بكاؤك ؟ قالت أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ قلت لا فما أخباره ؟ فمدت يدها إلى ردائها وأخرجت من أضعافه [1] كتاباً مقفلاً فتناولته منها ففضضت غلافه فاذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه هذه الكلمة التي لا أزال أحفظها حتى الساعة « إنك فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك ، أما اليوم وقد أصبحتُ على باب القبر فلا أغتفر لك أن لا تأتي الي لتودعني الوداع الأخير »

---

(١) أضعاف الثوب أثناؤه

فألقيت الكتاب من يدى وابتدرت البابَ مسرعاً فتعلقت الخادم بثوبى وقالت أين تريد يا سيدى ؟ قلتُ إنها مريضة ولا بد لى من المصير اليها ، فصمتت لحظة ثم قالت بصوت خافت مختنق لا تفعل يا سيدى فقد سبقك القضاء عليها

هنالك شعَرت أن قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أُعلم له مكاناً ثم دارت بى الأرض الفضاء دورةً سقطتُ على أثرها فى مكانى لا أشعر بشىء مما حولى فلم أُفق إلاّ بعد حين ففتحت عينى فإذا الليل قد أَظلنى وإذا الخادم لا تزال بجانبي تبكى وتنتحب فدنوت منها وقلت : أيتها المرأة أحقٌّ ما تقولين ؟ قالت نعم ، قلت قصّى علىّ كل شىء فقالت

إن ابنة عمك يا سيدى لم تنتفع بنفسها بعد فراقك فقد سأَلتْنى فى اليوم الذى رحلتَ فيهِ عن سبب رحيلك فحدثتُها حديث الرسالة التى كنت حملتُها إليك من زوجة عمك فلم تزد على قولها « وما ذا يكون مصير هذا البائس المسكين ! إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمرى شيئاً » ثم لم يجرِ ذكرك على لسانها بعد ذلك بخير ولا شرّ كأنما كانت تعالج فى نفسها أَلمَا مُمِضاً ، وما هى إلاّ أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها فاستحالت حالها وغاض ماء جمالها وانطفأت تلك الابتسامات

العذبة التي كانت لا تفارق ثغرها ثم سقطتْ على فراشها مريضة لا تُبِلّ (١) يوماً حتى تنتكس أياماً فراع أُمّها أمرُها وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب وكانت لا تزال تهتف بذلك فلم تدع طبيباً ولا عائداً إلاّ فزِعتْ إليه في أمرها فما أغنى العائد ولا الطبيب وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً

فبينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليال إذ شعَرتُ بها تحرك في مضجَعها فدنوت منها فأشارت اليّ أن آخذ بيدها ففعلتُ فاستوتْ جالسةً وقالت : في أي ساعة نحن من ساعات الليل ؟ قلت في الهزيع الأخير منهُ ، قالت أأنت وحدك هنا ؟ قلت نعم فقد هجع أهل البيت جميعاً ، قالت ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ فعجبتُ لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم وقلت بلى يا سيدتي أعلم مكانهُ ، وما كنت أعلم شيئاً ولكنني أشفقت على هذا الخيط الرقيق الباقي في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر خيط من خيوط أجلها ، فقالت ألا تستطيعين أن تحملي اليهِ كتاباً منيَ من حيث لا يعلم أحد بشأني ؟ قلت لا أحبّ اليّ من ذلك يا سيدتي ، فأشارت أن آتيها بمحبرتها فجئتها بها

(١) أبل من مرضه برئ منه

فكتبتْ اليك هـذا الكتاب الذى تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك فى كل مكان وأتصفح وجوه الغادين والرائحـين بكل سبيل على أراك فلم أعرف الطريق اليك ، حتى انحدرت الشمس الى مغربها فعـدت الى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغتهُ حتى سمعت الناعيةَ فعلمتُ أن السهم قد أصاب المقتل وأن تلك الوردة الناضرة التى كانت تملأُ الدنيا جمالاً وبهاءً قد سقطت اليوم آخر ورقة من ورقاتها ، فحزنت عليهـا حزن الثاكل على ولدها وما رئى مثلَ يومها يومٌ كان أكثر باكية وباكياً

وكان أكبر ما أهمنى من أمرها أنّ كل ما كانت ترجوه فى آخر يوم من أيام حياتها أن تراك ففاتها ذلك وسقطتْ دون أُمنيتها ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة فى نفسى ولم أزل أتطلب السبيل اليك حتى وجدتك

فشكرت لهـا صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت . فما انفردت بنفسى حتى شعَرت أن سحابة سوداء تهبط فوق عينىّ شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظرى كل شىء ثم لا أعلم ماذا تمّ لى بعد ذلك حتى رأيتك

*
* *

وما وصل من حديثه الى هـذا الحد حتى زفَرزفرة خلتُ

أن كبده قد ارفضّت (١) وأن هذه أفلاذها ، فدنوت منه وقلت ما بك يا سيدى ؟ قال بى انى أطلب دمعة واحدة أتفرّج بها مما أنا فيه فلا أجدها

ثم سكت ساعة طويلة فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت اليهِ فاذا هو يقول

« اللهمّ انك تعلم أنى غريب فى هذه الدار لا سند لى فيها ولا عضد ، وانى فقير لا أملك من متاع الدنيا ما أعود بهِ على نفسى ، وانى عاجز مستضعَف لا أعرف السبيل الى باب من أبواب الرزق فى هذه الحياة بوجه ولا حيلة ، وان الضربة التى أصابت قلبي قد سحقته سحقاً فلم يبقَ فيهِ حتى الذّماء (٢)

وانى أستحييك أن أمد يدى الى هذه النفس التى أودعتَها بيدك بين جنبيَّ فأنتزِعَها من مكانها وألقى بها فى وجهك ساخطاً ناقماً ، فامدد أنت يدك اليها واستردّ وديعتك اليك وانقلها الى دار كرامتك فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك »

ثم أمسك رأسه بيديه كأنما يحاول أن يحبسه عن الفرار وقال بصوت ضعيف خافت : أشعر برأسى يحترق احتراقاً وبقلبي

---

(١) ارفس الشيء تفرق وترشش
(٢) الدماء بقيه النفس

يذوب ذوبا ولا أحسبني باقياً على هذا ، فهل تعـدني أن تدفنني معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضي الله فيَّ قضاءه ؟ قلت نعم وأسأل الله لك السلامة ، قال الآن أموت طيب النفس عن كل شيء

ثم انتفض انتفاضة خرجت نفسهُ فيها وهو يقول (أحسنت إليَّ حيا فأحسنْ إليَّ ميتاً)

***

لقد هوَّن وجدي على هـذا البائس المسكين اني استطعت تنفيذ وصيته فدفنتـه حيث أراد ودفنت معـه تلك الرسالة التي دعتـه ابنة عمه فيهـا أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حيًّا ، فلباها ميتاً

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعهما بعد موتهما فضاء القبر

الشهداء

« مترجمة »

لم يبقَ لها بعد موت زوجها وأبويها إلاَّ ولد صغير يؤنسها ، وأخ شفيق يحنو عليها ، وصُبابة من المال تترشَّفُ[1] الرزقَ منها ترشفاً مصانَعَةً للدهر فيها

أمَّا الصُبابة فقد نَضَبَت ، وأمَّا الأخ فقد ضمَّهُ الدهر ضمَّةً ذهبَتْ بماله وبجميع ما يمتلك ، فأصبحتْ من بعده لا تملك مالاً ولا عضداً

لقد لقيتْ هذه المرأة المسكينة من الشقاء فى طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، نخاطت الملابس حتى عَشِيَ[2] بصرها ، وغسلت الثياب حتى يبِست أطرافُها ، ودخلت المصانع حتى كلت ، وخدمت فى المنازل حتى ذلت ، ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها

---

(١) ترشفت الابل الماء أخذته قليلا قليلا

(٢) عشى ساء بصره بالليل والنهار وله معان أخرى غير ذلك

ما كان لمثلها أن يحيا على مثل ذلك ولكنَّ اللهَ كان أرحم بها من أن يَسلبها السعادةَ ويَسلبها العزاءَ عنهامعاً ، فقد كانت اذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعّة تنبعث من سماء الرحمة الالهية حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاءً وصبراً ، شعاعَ الأنس بولدها ، وشعاعَ الرجاء في أخيها ، وشعاعَ السرور بما وُفقت إليهِ من صيانة عرضها

دارت الأيام دورتَها فاكتهلت الأم وشبَّ الولد وانتقل همّ قلبها إلى قلبه وكان لا بدّ له أن يعيش وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليهِ ، فمشى يتصفّح وجوه الرزق وجهاً وجهاً ، ويرد مناهله منهلاً منهلاً ، حتى وقف بهِ حظهُ على حرفة الرسم فأنس بها وما زال يعطيها من نفسهِ وجدِّه حتى مَهر فيها ، والمهارة لا تدُل على صاحبها بنفسها بل هو الذى يدُل عليها بحيلتهِ ورفقهِ ، وما كان الفتى يملك أداةَ ذلك ولا يعرف السبيل إليهِ ، فاستمرّ خاملاً مغموراً لا تَدِرّ له حرفته إلاّ القطرة بعد القطرة ، في الفَيْنَةَ بعد الفيْنَةَ (١) فلم يستطع أن يسعد أمهُ ولكنهُ استطاع أن يملأ جوفها ، فقنِعتْ بذلك ولزمتْ منزلَها ، ووجدت بردَ الراحة في صدرها

إلاّ أنها كانت إذا ذَكرت ذلك الغائبَ النائيَ عنها حنَّت إليهِ

---

(١) الفينه الحين

حنين النِّيب [1] الى فِصالها [2] وأحزنها أنها لم تره منذ خمسة عشر عاماً ولم ترَ منهُ كتاباً منذ عشرة أعوام حتى اليوم ، فلا تجد لها بدّاً كلما هاجها الوجدُ إليهِ من أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذي يفزع إليهِ جميع البائسين والمحزونين فى بأسائهم وضرّائهم ، خلوتِها ودموعِها ، فتبكى ماشاءَ الله أن تفعل ثم تخرج لاستقبال ولدها باشّة باسمة كأن لم تكن باكيةً قبل ذلك

دخل عليها ولدها يوماً فى خلوتها فرآها تبكى ورأى فى يدها صورةً فتبيّنها فإِذا هى صورةُ خاله فألمَّ بسريرة نفسها وأمسك وراء أهداب عينيهِ دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك ومشى اليها حتى وضع يده على عاتقها وقال رفّهى عن نفسك يا أُمّاه فستعلمين خبر غائبك عما قليل ، فتطلّق وجهها وأضاء وقالت وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال قد علمت أن معرِضاً سيقام للرسم فى بعض مدن أميركا بعد بضعة شهور وانهم قدّروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى وقد وعدنى بعض المحسنين أن يساعدنى على الشخوص إليهِ علّنى أستطيع أن أنال ما أُقيم بهِ وجهى وأُنفذ بهِ نفسى ونفسك من هذا الشقاء ، وهنالك أُفتش عن غائبك حتى أجده

---

(١) النيب جمع ناب وهى الناقة المسنه
(٢) الفصال جمع فصيل وهو ولد الناقة أو البقرة اذا فصل عن أمه

أو أجد منقطَع أثره ؛ فاستسرّ بشرُها الذى كان متلألئاً وقالت لا تفعلْ يابنى فما أنا بشقية مارأيتُك بجانبى وما أنت بشقى ما قنِعتَ بما قسم الله لك ؛ ولئن فعلتَ لا تكونَنَّ امرأةٌ على وجه الأرض أعظم منى لوعةً ولا أشقى ، ولئن بكيتُ لفراق أخى مرّةً فسأبكى لفراقك ألف مرّة ، وإنى كلما ذكرتُهُ وجدتُ فى وجهك العزاءَ عنهُ فمن لى بالعزاء عنكما إن فارقتمانى معاً ؟

فما زال يروضها ويمسحها ويمنّيها فى رحلته الأمانىَ حتى أسلستْ واطمأنت وأسلمت إلى الله أمرها

وما هى إلاّ أيام قلائل حتى ضرب الدهرُ بينهما بضرباته فإذا الأمّ وحيدةٌ فى فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريبٌ فى أميركا لا يعرف له سنداً ولا عضداً

***

وصل الفتى إلى معرِض الرسم فعرض رسمه هناك وكان يمثل فيهِ موقِف الوداع الذى جرى بينه وبين أُمه على شاطئ البحر يوم رحيله ، وكان موقفاً محزناً فأحسن تمثيله فأُعجب بجماله القومُ وأثر فى نفوسهم منظَره فقضوا له بالجائزة التى كان يمنّى نفسه بها ، فما حصَلتْ فى يده حتى خُيِّل إليهِ أنهُ أسعد أهل الأرض طرًّا ؛ وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيهِ عالَمَ الوجود ؛

وانهُ ما ذاق قبل اليوم مرارة العيش ، ولا رأىٰ صورة الشقاء . وكذلك يعبَث الدهر بالانسان ما يعبَث ويذيقهُ مايذيقهُ من صنوف الشقاء وألوان الآلام حتى إذا علم أنه قد أوحشهُ وأرابهُ(١) وملأ قلبهُ غيظاً وحنقاً أطلعَ له فى تلك السماء المظلمة المدْلهِمَّة بارقة واحدة من بوارق الأمل الكاذب فاستردّه بها إلى حظيرتهِ راضياً مغتبطاً كما تقاد الشاة البلهاء بأعواد الكلأْ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى الإنسان به

أرسل الفتى الى أُمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضه وكتب إليها أنهُ لن يبرح هذه الأرض حتى يفى لها بما عاهدها عليهِ ، ومشى يفتش عن خاله فى أعراض البلاد ويسائل عنهُ كل من لقيهُ فى طريقهِ من القاطنين أو الطارئين (٢) حتى حدثهُ بعضهم أن آخر عهدهم بهِ رحلة رحلها عنهم منذ سنين إلى بعض الجزر الجنوبية فى التفتيش عن معدِن نُحاس هناك ثم لم يعد بعد ذلك ، فمشى فى الطريق التى علم أنهُ سلكها حتى وصل الى جزيرة موحشة مقفِرة وكانت سماء تلك البلاد لا تزال تغشّى صفحتَها بقية من ظلمات العصور الأولى فمرّ بقبيلة من قبائل الزنج كانت نازلة هناك وراء بعض الهضاب المشرفة فما رأوه حتى هاجت

(١) أرابه شككه وحمل فيه ريبة (٢) الطارئون (المهاجرون)

فى صدورهم أحقاد العداوة اللونية التى لا يزال يضمرها هؤلاء القوم لكل شىء أبيضَ حتى للشمس المشرقة ، والكواكب الزاهرة ، فداروا بهِ دورةً سقط من بعدها أسيراً فى أيديهم فاحتملوه حتى وصلوا بهِ إلى ديارهم فاحتبسوه هناك فى نفَق تحت الأرض كانوا يسمونه « سجن الانتقام »

***

هنالك علم أن تلك البارقة التى لاحت له فى سماء السعادة من الأمل يوم المعرض إنما هى خُدعة من خُدع الدهر وأكذوبة من أكاذيبهِ وأن ما كان يقدّره لنفسه فى مستقبل حياتهِ من سعادة وهناء قد ذهب بذَهاب أمس الدابر ، وأصبح صحيفة بالية فى تاريخ الدهر الغابر

ولقد كان فى استطاعتهِ أن يَجلُد للنازلة التى نزلت بهِ ويستمسك لها لو أنهُ استقلّ بحملها ، ولكن الذى آدَهُ[1] وأثقله أن هناك إنساناً آخر كريماً عليهِ يقاسمهُ إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمهِ فيهِ على عاتق واحد

نزلوا بهِ إلى المحبَس وقادوه إلى سلسلة غليظة الحلقات فسلكوه فيها ، ثم أغلقوا الباب من دونه وتركوه وشأنه ،

---

(١) آده الامر أوداً بلغ منه مجهوده

فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيهِ فلم يرَ أمامه شيئاً فلم يعلم هل كُفَّ بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيهِ فحَجبتْ عن ناظره كلَّ شيء حتى نفسَها ، ولم يزل فى حيرتهِ تلك حتى انقضى الليل فانحدر إليهِ من ثُقب صغير فى حائط المحبس خيط أبيضُ دقيق من شعاع الشمس حتى استقرَّ بين يديهِ ، فأَنِس بهِ أُنس الغريب بالغريب وشكر للشمس رسولها الذى أرسلتهُ إليهِ ليؤنسهُ فى وَحدتهِ واستمرَّ بصره عالقاً بهِ لا يفارقهُ أينما سار وحيثما انتقل حتى رآه يتقَبَّض شيئاً فشيئاً ، ويتراجع قليلاً قليلاً ، ثم علا إلى ثُقبه الذى انحدر منهُ ، ثم طار إلى سمائهِ التى هبط منها ، فحزن لفراقهِ حزن العشير لفراق عشيره ودار بعينيهِ حول نفسه فإذا قطعٌ سوداء مظلمة تتدجَّى وتتكاثف من حوله ويموج بعضها فى أحشاء بعض ، وإذا هو قطعةٌ من تلك القطع هائمةٌ فيها هيَمان الروح الحائر فى ظلمات القبور ، فما يكاد يَعرف مكانَهُ منها ، فمشى فى ذلك المعترك المائج يفتش عن نفسه ويتلمَّسها بيده تلمُّساً حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة بقدميهِ فوجدها ، وكان قد أجهده المسير فتساقط على نفسهِ باكياً منتحباً

وهكذا انقطع هذا المسكين عن العالم كله ، خيره وشره ، ولم يبقَ بينه وبينه من صلة إلاَّ ذلك الشعاع الأبيض الذى يزوره

في كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذي يطرقهُ في كل مساء

وما مرّت به على حاله تلك سنة واحدة حتى نسي نفسه ، ونسي أمه ، ونسي العالم الذي كان يعيش فيهِ ، والعالم الذي انتقل إليه ، ونسي الليل والنهار ، والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء ، وأصبح في منزلة بين منزلتي الحياة والموت ، فلا يفرح ، ولا يتألم ، ولا يذكر الماضي ، ولا يرجو المستقبل ، ولا يعلم هل هو حجر بين الأحجار ، أو قطعة بين قِطع الظلام ، أو جسم يتحرّك ، أو خيال يسري ، أو وهم من الأوهام ، أو عدم من الأعدام

*
* *

مرّت على تلك الأم المسكينة بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدلها عليهِ فأصبح من يراها في طريقها يرى عجوزاً حدباء والهة متسلّبةً [١] مَذهُوباً بها [٢] قد توكأت على عصا ماتزال تضطرب في يدها ، وأسبلتْ فوق جسمها الناحل المحقَوقف أَهداماً [٣] خُلْقاناً يحسبها الناظر إليها لكثرة مانالت يد البِلى منها أهداباً متلاصقة ، أو مِزَقاً [٤] متطايرة ، تقف صدرَ النهار بأبواب المعابد والكنائس تسأل الله أن يرحمها ، والناسَ أن

---

(١) المتسلبة التي أحدت على زوجها أو غيره (٢) المذهوب به المسلوب عقله ويقال أين ذهب بك أي أين ذهب عقلك (٣) الاهدام جمع هدم بالكسر وهو الثوب البالي
(٤) المزق قطع الثوب الممزقة

يطعموها ، حتى إذا زلّت الشمس عن كبد السماء أخذت سَمْتَها[1] إلى شاطئ البحر وجلستْ فوق صخرة من صخوره تناجي أمواجه ورماله ، وترقُب أُفُقَه البعيد كما يرقُب المنجم كوكبه فى أفق السماء ، فإذا سرَتْ إليها نَسَمة وجدتْ ريح ولدها فيها ، وإذا أقبلتْ عليها موجة ظنت أنها رسول منه اليها ، واذا تراءت لها شبحٌ سوداء على سطح البحر حسبتْها السفينةَ التى تحمله ، فلا يزال بصرها عالقاً بها لا يفارقها حتى تدنوَ من الشاطئ فتقف في طريق الركبان تتصفّح الوجوه وتتوهم الشمائل وتهتِف باسم ولدها صارخة مُعوِلة وتقول : عبادَ الله من يدلنى على ولدى أو يَنشُده لى فى معالم الأرض ومجاهلها ، فلقد أضللتُهُ منذ عهد بعيد فحارَ بى الدهرُ من بعده فلا أنا ساليةٌ عنهُ ولا واجدة سبيلا إليهِ ، فاحتسبوها يداً عند الله وحدثونى عنهُ حديثاً واحداً هل عاد معكم ، أو تخلّف عنكم ليعود على أثركم ، أو انقطع الدهر بهِ فلا أمل فيهِ بعد اليوم ؟ فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم ما تقول ، وربما سمعها بعض الناس فظنها امرأة مُلتاثةً[2] فرثى لها ، أو سائلةً فتصدّق عليها

ولا يزال هذا شأنها فى موقفها حتى ترى الأمهات والأخوات

(١) السمت الطريق (٢) الملتاث حن واختلط

والبنات قد عدنَ بأولادهنَّ واخوتهنّ وآبائهنّ إلى منازلهنّ ولم يبقَ على شاطئ البحر من غادٍ ولا رائح فتتناول عصاها وتعودُ أدراجَها إلى بيتها فتأخذ مجاسها من حافة قبرٍ كانت قد احتفرته بيدها في أرض قاعتها وتوهمتْه مدفناً لولدها توهُّماً فتبكي وتقول

في أي بطن من بطون الأرض يا بُني مضجعُك ، وتحت أي نجم من نجوم السماء مصرعك ، وفي أي قاع من قِيعان البحر مثواك ، وفي أي جوف من أجواف الوحوش الضارية مأواك

لو يعلم الطير الذي مزّق جثتك ، أو الوحش الذي ولغ في دمك ، أو القبر الذي ضمك إلى أحشائهِ ، أو البحر الذي طواك في جوفه ، أن وراءك أُمَّا مسكينة تبكي عليك من بعدك لرحموك لأجلي

عُد إليَّ يا بني فقيرًا أو مسكينًا أو مقعداً أو كفيفاً فحسبي منك أن أراك بجانبي في الساعة التي أُفارق فيها هذه الحياة لأقبلك قبلة الوداع وأعهَد اليك أن تزور مضجَعي في مطلَع كل شمس ومغربها لتخفّ بزورْتك عني ضمّة القبر ، وتستنير بوجهك الوضّاء ظلماتُهُ الحالكة

ما أسعد الأمهات اللواتي يَسبقْن أولادَهنّ إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتي يسبقهُنّ أولادُهنَّ إليها ؛ وأشقى منهنّ

تلك الأم المسكينة التى تدب إلى الموت دبيبا وهى لاتعلم هل تركتْ ولدَها وراءَها، أو انها ستجده أمامها

وهكذا كان شأنها صباحَها ومساءَها، فلم تزل تبكى ولدَها بكاءَ يعقوبَ ولدَه، حتى ذهب بصرُها ذَهابَ بصره، ولكنها لم تستطع عن يوسفها صبراً

***

دخل السجان على الفتى عشيةَ ليلة فى مَحبَسه فاقترب منهُ ومدَّ يده إلى سلسلته فانتزعها من حلْقِها فلم يقل شيئاً ولم يسأله ماذا يعمل، وماذا يريد، وأين يَذهب بهِ، ولم يسائل نفسَهُ هل هى ساعةُ نجاتهِ، أو ساعةُ حِمامهِ، ثم قاده بيده إلى خارج المحبس حتى وصل بهِ إلى صخرة عظيمة رابضة على مقربة من مجتمع القبيلة فشد سلسلتَهُ إليها وتركه وشأنَهُ، ففتح عينيهِ فرأى مكاناً غير مكانه، ومنظَراً غير منظَره، وسماءً وأرضاً غير سمائه وأرضه، فبدأ شعوره يعود إليهِ شيئاً فشيئاً حتى استفاق فعلم بما كان فيهِ وبما صار إليهِ

هنا ذَكر السعادة والشقاء، والغربة والوطن، والسجن وظلمته، والقيد ووطأته، ثم طار بخياله الى ماوراء البحار فذكر أُمهُ وشقاءَها من بعده، وحنينَها إليهِ، ويأسها من لقائهِ، فذرَفت

عينهُ دَمعةً كانت هي أول دَمعة أرسلها من جفنهِ من تاريخ شقائهِ، وما زال يرسل العبَرة أثر العبَرة لا يهدأ ولا يستفيق حتى مضى شَطر من الليل وهدأ الناس جميعاً في مضاجعهم فأسلم رأسَهُ إلى ركبتيه وذهب بخياله إلى حيث شاء الله أن يذهب

فانهُ لكذلك وقد رنقت في عينه سِنة من النوم إذ شعَر بيد تلمَس كَتِفه فرفع رأسه فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسهِ فخُيّل إليهِ أن ملَكاً نورانيًّا نزل إليهِ من علياء السماء لينقذه من شقائه فتبيّنهُ فإذا فتاة جميلة بيضاء مادارت المناطق ولا التفت الأزُر (١) على مثلها حسناً وبهاءً، تمشَّى في بياضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الرَّهوِ (٢) الذي يخالط وجه الشمس في ضحوة النهار، فسألهـا مَنْ أنتِ؟ قالت أنا فتاة من فتيات هـذا الحي وقد ألممْتُ بشيء من أمرك فعلمت أنك شقيٌّ فرحمتك مما أنت فيهِ فجئتك أطلق وثاقك لتذهب حيث تشاء، فلا مثُوبةَ يقدمها المرء بين يدي ربهِ يوم جزائه أفضل من مواساة البائس وتفريج كربة المكروب، فعجب لزنجية بيضاء، ووثنية تعبد الله، وبربرية تحمل بين جنبيها قلباً يعطف على البؤساء والمنكوبين، وقال في نفسه مالهذه الفتاة بدٌّ من شأن، وورد عليهِ من أمرها

(١) الازر جمع ازار (٢) الرهو الرقيق

ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسَهُ وهواه ، وأنساه كلّ شأن من شؤون الحياة إلاّ شأنَها ، فلبث صامتاً واجماً لا ينطق ولا يرفع رأسه حتى أعادت عليه كلامها فرفع رأسه إليها وقال : اذهبي لشأنك يا سيدتى فانى لا أُريد النجاة : فعلمتْ أنها زفرة من زفرات اليأس فدنت منهُ ووضعت يدها على عاتقه وقالت لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الفتى سبيلاً ، وانجُ بحياتك من يد الموت فليس بينك وبينهُ إن أنت بقيتَ هنا إلاّ أن ينحدر عن وجهك قِناع هذا الليل فاذًا أنت فلَذٌ طائرةٌ مع شَفرات السيوف ، فلا تَفجع نفسك فى نفسك ، ولا تَفجع هذه المسكينة الواقفة بين يديك فيك ، فان شديداً علىّ جداً أن أراك بعد قليل ذبيحةً فى يد الذابح ، أو مُضغةً فى فم الآكل ، قال إنكِ لا تستطيعين نجاتى ، قالت لا أفهم ما تقول فانى ما جئتك إلاّ وأنا عالمة ماذا أصنع ، قال قد كنتُ قبل اليوم موثقًا بوَثاق واحد فأصبحتُ موثقاً بوَثاقين ، فإن استطعتِ أن تحُلّى وَثاق قدمي فانك لا تستطيعين أن تحلى وثاق قلبي ، فألمّتْ بسريرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاخصة إليها ساعة فرفع رأسه إليها ولبث شاخصاً إلى وجهها نظرَ المصوّر الماهر إلى تِمثاله البديع حتى شعَر بدَمعة حارة قد سقطت من جفنها على

وجهه فجرت فى مجرى الدموع من خده فانحدرت من جفنه دمعةٌ مثلُها فالتقت بدَمعتها فى مجراها فامتزجتا معاً ، فمدّ يده إلى ردائها فاجتذبها إليهِ وقال قد طال وقوفك يا سيدتى فاجلسى بجانبى نتحدث قليلاً ، فجلست على مقربة منهُ فقال لها : إن امتزاج دمعى بدمعك فى هذه الساعة قد دلنى على أنّا لا نفترق بعد اليوم أحياء أو أمواتا ، فإن كنتِ تريدين لى النجاه فانى لا أنجو إلاّ بكِ . قالت ليتنى أستطيع ذلك يا سيدى ، قال وما يمنعك منهُ ، فنظرت إليه نظرة دامعة وقالت : لا يمنعنى شىء سوى انى أخاف أن أُحبك : قال وىم تخافين ، قالت لا أعلم ، قال أنا لا أسألك عما تكتمين فى صدرك من الأسرار ولكنى أسألك أن تتركينى وشأنى وتدعينى فى يد القدر يفعلْ بى ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراكِ أمّا اليوم فحسبى عزاءً عمّا أُلاقيهِ من غُصصهِ وآلامهِ نظرةُ رحمةٍ تُلقينها علىّ فى مصرعى ، ودمعةُ حزنٍ تَسكبينها من بعدى على تربتى ، فما استقبلتهُ إلاّ بدموعها تنحدر على خديها كالعقد وهىَ سِلكهُ فانتثر ، ثم مشت إلى قيده فعالجتهُ حتى انصدع وقالت إنى ذاهبة معك وليقضِ الله فىّ وفيك قضاءه

***

ما زالا يطويان القفار ، ويعبُران الأنهار ، ويَضْحَيانِ[1] مرَّة ويَخْصَرانِ[2] أخرى ، ويردان آجِنَ[3] المياه وصفوَها ، ويقتاتان يابس الثمار ورطبها ، فإذا لاح لهما ظلّ شجرة أو شاطئ غدير أو سفح جبل أويا إليهِ فاستراحا بجانبهِ قليلاً ثم عادا إلى شأنهما

وكانت لا تزال تُغَشِّي وجهَ الفتاة مذ فارقت موطنها سحابةٌ سوداء من الحزن ما تكاد تنقشع عنهُ ، وكانا إذا نزلاَ منزلا وأخذا مضجعَهما من تربه وأحجاره نهضتْ من مَرقدها بعد هَدأةٍ من الليل وانتحتْ ناحيةً من حيث تظن أنه لا يشعرُ بمكانها ومدَّت يدها إلى صدرها فتناولتْ صليباً صغيراً فقبلتْه ثم أنشأت تهمهم بكلام خفي كأنما تناجي شخصاً غائباً عنها فتستغفره من ذنب جنتهُ إليه مرَّةً وتطلب معونته على أمر لاتعرف كنهه ولا تعلم وجه الصواب فيه أُخرى ، حتى ينبثق نور الفجر فتعود إلى مرقدها ، وكان كلما سألها عن شأنها التوتْ عليهِ ودافعتهُ عنها حتى تَذمَّ[4] أن يعاودها فتركها وشأنها وقد أصبح يحمل في صدره من الهمّ فوق ما تحمل من همّ نفسها ، حتى أشرفا بعد مسير

---

(١) ضحي من باب علم برز للشمس

(٢) خصر كسمع برد ومنه (وإما بالعشي فيخصر)

(٣) الآجن من الماء الذي تغير طعمه ولونه

(٤) الذمم مجانبه الذم ومنه (لولم أترك الكذب تأثماً لتركته تذمماً) أي استنكافاً

ثلاثين يوماً على سواد العمران فاستبشرا وعلما أنهما قد أصبحا في الساعة الأخيرة من ساعات الشقاء

وكانا قد وصلا إلى نهر صغير هنالك فجلسا بجانبه تحت شجرة مُورِقة يتحدثان وهي أول مرّة جلسا فيها للحديث فقال لها: ما حفظ الله حياتنا في هذه السفرة القاتلة في هذه القفرة الجرداء هذه الأيامَ الطوال الا وقد كتب لنا في لوح مقاديره سعادةً لا أحسب أنه قد أعدّ خيراً منها لعباده المتقين في جنّات النعيم، قالت ومتى كانت الحياة الدنيا موطنًا للسعادة أو مستقرًا لها، ومتى سعد أبناؤها بها فنَسعَد مثلهم كما سعدوا؟ إن كان لابدّ من سعادةٍ في هذه الحياة فسعادتُها أن يعتقد المرء أن لا سعادة فيها، ليستطيع أن يقضيَ أيامه المقدَّرة له على ظهرها هادئ القلب ساكن النفس لا يكدر عليه عيشَهُ أمل كاذب، ولا رجاء خائب، قال إن السعادة حاضرةٌ بين أيدينا وليس بيننا وبينها إن أردناها إلاّ أن تنطويَ أمامنا هذه المرحلة الباقية من هذا القفر فنلجأ إلى أول بيت نلقاه في طريقنا من بيوت الله فنقضيَ فيه ساعةً واحدة نخرج من بعدها زوجين سعيدين لا يحول بيننا حائل، ولا يكدر صفونا مكدر، فأطرقتْ هنيهة ثم رفعت رأسها فإذا دمعة صافية تنحدر على خدها فقال ما بكاؤك يا سيدتي، قالت

أتذكر ليلة النجاة إذ دعوتنى إلى الفرار معك فقلتُ لك إنى أخاف إن فررتُ معك أن أُحبك ؟ قال نعم ، قالت واحسرتاه أحسبُنى قد وقعتُ اليوم فيما كنتُ منهُ أخاف ، ثم صرختْ صرخةً عالية وقالت : ماذا فعلتِ يا أمَّاه ! وسقطت مكبّة على وجهها ، فدنا منها وأمسك بيدها فإذا رعدة شديدة تتمشى فى أعضائها فعلم انها البُرَداء فالقى عليها رداءه وعمد إلى بعض الأشجار فاقتطع منها بضعة أعواد ومشى يفتش عن النار فى كوخ كان يتراءى له على البعد حتى بلغهُ فوجد على بابه كاهنا شيخاً جليل المنظر فدنا منهُ وحيَّاه تحية حيّا بأحسن منها وقال له ما شأنك يا بنى ؟ قال إن بجانب ذلك النهر فتاة مسكينة تركتها ورائى تشكو البرد فهل أجد عندك جَذوة نار أعود بها إليها لتصطلىَ بها ؟ فمكّنَهُ من طَلِبته وقال له كتب الله لك ولعليلتك السلامة يا بنى فاذهب فانى على أثرك ، فعدا الفتى عدواً شديداً حتى بلغ النهرَ فأدهشه أن رأى الفتاة هادئة ساكنة طيبة النفس لا تشكو برداً ولا ألماً فاقبل عليها مبتسماً وقال لها لعلّ ماكان يخالط نفسك من الألم لذكرى أهلك ووطنك قد ذهب بذَهاب الأيام ، قالت ما كان يخالط نفسى من ذلك شىء فاجلس أُحدثك حديثى فقد آن أن أُفضى بهِ إليك ، فجلس بجانبها فأنشأت تحدثه وتقول

أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ولا من أرضها إلا قبرًا قد زال اليوم رسمه ، وبَلِيَ مع الأيام دفينه ، فقد ولدتني أمي على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عامًا فالتقى بها عند مروره بحيّها فأحبها وأحبته ثم فرّت معه إلى ما وراء هذه الصحراء فدانت بدينه ثم تزوجها فولدتني فدنت بدينهما وعشنا جميعا حقبة من الدهر عيشَ السعداء الآمنين ، وكان رجال قبيلة أمي لا يزالون يتطلبون السبيل إلينا حتى سقطوا علينا سقوط القضاء في ليلة من ليالى الظلام فاقتادونا جميعاً إلى أرضهم ، وكنتُ إذ ذاك لم أسلخ العاشرةَ من عمري فقتلوا أبي أمامي وأمام أمي قِتلةَ لا يزال منظرُها حاضرًا بين يديّ حتى الساعةَ لا يفارقني ، فحزنتْ أمي عليه حزنًا شديداً ما زال يدنو بها من القبر شيئًا فشيئًا حتى جاءت ساعتُها فحضر موتَها رسولٌ من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فدعتني إليها أمامه وقالت لي : يابنية إن أمي قد ولدتني للشقاء على هذه الأرض وأحسَب أني قد ولدتُك له كما ولدتني فحسبُنا ذلك فلا تكوني سبباً في شقاء أحد من بعدك ، وانذِري نفسك للعذراء نذراً لا يحلُّه إلا الموت : فأذعنتُ لأمرها وأشهدتُ الكاهن على نذري فتلألأ وجهها بشراً ثم نظرتْ نظرة

فى السماء وقالت : ها ئنذا على أثرك يا رافائيل : ثم فاضت روحها

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها هل تعرفين وطن أبيكِ وأسرتهُ ؟ قالت نعم وسمّتهماله فاستُطير فرحاً وسروراً وقال : أحمدك اللهمّ فقد وجدتُ ضالّتى : فعجبتْ لأمره وقالت : وأى ضالة تريد ؟ قال أتذكرين يوم اللقاء إِذِ امتزجتْ دَمعتانا معاً فقلت لك انها صلةٌ بينى و بينك لا يقطعها إلاّ الموت ؟ قالت نعم ، قال قد كنت أمُتّ (١) إليكِ قبل اليوم بحرمة الحب وحدها ، فأصبحتُ أمُتّ إليكِ بحرمة الحب والقُربى ، فأنت اليوم حبيبتى وابنةُ خالى معاً ، فقالت بصوت خافت أحمد الله فقد وجدت لى فى هذه الساعة العصيبة أخاً ، وأخذ جسمها يضطرب اضطراباً شديداً ، ووجهُها يربدّ شيئاً فشيئاً ، فذُعر الفتى وارتاع وحنا عليها وقال ماذا أرى ؟ فقالت لا تُرَع فاصغَ إلىّ فان لحديثى بقيةً لم تَسمعها ، انى مذ حفظتُ وصية أمى ووهبتُ للعذراء نفسى كان لا بد لى أن أتخذ لى مفزعاً أفزع اليهِ فى اليوم الذى أخاف أن يغلبنى فيه هواى على دينى ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معى حتى جاء اليوم الذى خِفتهْ فالجأتُ اليها فنجوت وأستودعك الله ، فنظر الفتى حيث أشارت فرأى قارورةً ملقاة وراءها فتناولها

---

(١) مت اليه كدا توسل اليه به

ا ذا هي فارغة إلا من بقية صفراء في قرارتها فعلم كل شيء

هنالك شعر كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين ضلاعه ، وكأن طائراً طار عن رأسه بجناحيه الى جو السماء فصعق في مكانه صعقة لم يشعر بعدها بشيء مما حوله فلم يستفق الا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقف أمامه يحمل على كفه طعاماً كان قد جاء به إليهما وينظر نظرة الحائر المشدود لما يرى ، فوثب الفتى اليه حتى صار أمامه وجهاً لوجه ونظر إليه نظرة شزراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره وكأنما خولط في عقله فاخذ يهذي ويقول :

أتدري أيها الرجل لم ماتت هذه الفتاة ، لأنها وهبت نفسها للعذراء ثم عرض لها الحب في طريقها فوقفت حائرة بين قلبها ودينها فلم تجد لها سبيلاً الى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت

تلك جرائمكم يا رجال الأديان على وجه الارض ، ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحلون منه ماتحلون ، وتربطون ماتربطون ، حتى قضيتم بتحريمه قضاء مبرماً لا يقبل أخذاً ولا رداً

إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق

لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نُحبّ وأن نعيش فى هـذه الدنيا سعداء ، فما شأنكم أنتم أيها الفضوليون والدخولَ بين المرء وربه ، والمرء وقلبه

إن الله فى ملكوت سمائه أرفع شأناً وأعلى مكاناً من أن تتناوله أنظارنا ، فنحن لا نستطيع أن نراه إلا فى آثاره ومصنوعاته ، فلا بدّ لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه

إن كنتم تريدون أن نعيش على هذه الأرض بلا حب فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفّاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ، فإنّا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أفئدة وقلوب

أتظنون أيها القوم أن الله ما خلقنا فى هـذه الدنيا إلاّ لننتقل فيها من ظلمة الرحم إلى ظلمة الدير ، ومن ظلمة الدير الى ظلمة القبر ؟ بئست الحياة حياتُنا إذن وبئس الخالقُ خلقُنا

إنا لا نملك فى هذه الدنيا سعادةً نحيا بها غير سعادة الحب ولا نعرف لنا ملجأ نلجأ إليهِ من هموم العيش وأرزائه سواها ، ففتشوا لنا عن سعادةٍ غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها

هذه الطيور التى تغرّد فى أعشاشها إنما تغرد بنغمات الحب ، وهذا النسيم الذى يتردَّد فى الأجواء إنما يحمل فى أعطافه رسائل

الحب ، وهذه الكواكب فى سمائها ، والشموس فى أفلاكها ، والأزهار فى رياضها ، والأعشاب فى مروجها ، والسوائم فى مراتعها والسوارب فى أجحارها ، إنما تعيش جميعا بنعمة الحب ، فتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت أيها القساة المستبدون أرفع شأنا من الإنسان الناطق وأحق منهُ بنعمة الحب والحياه ،

هنيئاً لها جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ، فقد نجت بذلك من شرّ عظيم ، وشقاء مقيم

إنا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعترف لكم بسلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم ، فتواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم ومغاوركم ، فانا لا نستطيع أن نتبعكم اليها . ولا أن نعيش معكم فيها

إن وراءنا نساءً ضعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شركم اليهم ، فلا بد لنا أن نقف فى وجوهكم ونعترض سبيلكم لنذودكم عنهم حتى لا تصلوا اليهم فتفسدوا عليهم البقية الباقية لهم من قلوبهم وعقولهم

إنا لا نعبد إلاّ الله وحده ولا نشرك بهِ غيره ، وإنا نستطيع أن نعرف الطريق اليه وحدنا بدون دليل يدلنا عليه فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم

كتابُ الكون يغنينا عن كتابكم ، وآيات الله تغنينا عن آيانكم ، وأناشيد الطبيعة ونغماتها تغنينا عن أناشيدكم ونغمانكم ، وهذا الجمال المترقرق فى سماء الكون وأرضه ، وناطقهِ وصامته ، ومتحركه وساكنه ، إنما هو مرآة نقية صافية ننظر فيها فنرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فنخرُّ بين يديه ساجدين ، ثم نصغى اليه لنستمع وحيه فنسمعه يقول لنا (أيها الناس إنما خُلق الجمال مُتعة لكم فتمتعوا بهِ ، وإنما خُلقتم حياةً للجمال فأحْيُوه)
ذلك أمر الله الذى نسمعه ولا نسمع سواه

***

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، ووهت عزيمته ، وارتعدت مفاصله ، فسقط فى مكانه يزفِر زفيراً شديداً ، ويئن أنيناً محزناً ، فاقترب منهُ الشيخ ووضع يده على رأسه وقال ارفق بنفسك يا بنى فما أنت بأوّل ثاكل على وجه الأرض ، ولا راحلك بأول راحل عنها ، وإن فى رحمة الله ورضوانه غنى للصابرين ، وجزاءً للمحسنين ، فتعلق الفتى بيده فقبلها وقال اغفر لى ذنبي يا أبت فقد كنت من الظالمين ، قال غفرلك الله يا بُنى فما دون رحمة الله باب موصد ولا رِتاج قائم ، قال له يا أبتِ إن هذه الفتاة غريبة عن هذه الأرض وليس لها فيها أحد سواى ، وقد ماتت من

أجلى وفى سبيلى ، فهل تأذن لى أن أدنوَ منها لأقبلَها قبلة الوداع فى آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ؟ قال افعل يا بنى ، فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانَها فضمّها اليه ضمةً شديدة وأهوى بفمه على فمها فقبلها لأول مرة فى حياته قبلةً فاضت روحهُ فيها



فى الساعة التى دُفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على شاطئ ذلك النهر الجارى مرّت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت تعتادها بالزيارة من حين إلى حين فنظرتْ إلى مكانها الذى اعتادت أن تتخذه من حافة ذلك القبر المفتوح فرأتهُ خالياً فأشرفت على الحفرة فوجدتْها متردّية فيها معفّرة بترابها لا حراك بها ، فملأت بالتراب الذى كانت مجتمعاً حول الحفرة تلك الأشبارَ الخمسة التى هى مسافة ما بين الحياة والموت ثم أسبلتْ فوق تربتها دَمعة كانت هى كل نصيبها من الدنيا

الحجاب

« موضوعة »

ذهب فلان الى أوربا وما نُنكرُ من أمره شيئاً فلبث فيها بضع سنين ثم عاد وما بقي مما كنا نعرفه منه شيء

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عُرسها وعاد بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة ، وذهب بقلب نقيّ طاهر يأنَس بالعفو ويستريح الى العذر وعاد بقلب ملفَّف مدخول لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها ، والنقمةُ على السماء وخالقها ، وذهب بنفس غضَّة خاشعة ترى كل نفس فوقها وعاد بنفس ذهّابة نزّاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقي نظرة واحدة على ما تحتها ، وذهب برأس مملوء حكمة ورأياً وعاد برأس كرأس التمثال المثقوب لا يملؤه الا الهواء المتردد ، وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من دينه ووطنه وعاد وما على وجهها أصغر في عينه منهما

وكنت أرى أن هذه الصور الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم انما هيّ أصباغ مفرغةٌ على أجسامهم إفراغاً لا تلبث أن تطلُع عليها شمسُ المشرق فتمحوها كأن لم تكن ، وأن مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكانُ الوجه من المِرآة اذا انحرف عنها ، زال خياله منها ، فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق وابسته على عِلاته وفاء بعهده السابق ورجاءً لغده المنتظر محتمِلاً في سبيل ذلك من حُمقه ووَسواسه وفساد تصوراته ، وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثلي باحتمال مثله حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ، ومصيبة المصايب ، فكانت آخر عهدي به

دخلت عليه فرأيته واجما مكتئبا فحييته فأومأ إليّ بالتحية إيماء فسألته ما باله ؛ فقال ما زلتُ منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه ، ولا أدري مصير أمري فيه ، قلت وأيـة امرأة تريد ؟ قال تلك التي يسميها الناس زوجتي ، وأسميها الصخرة العاتية القائمة في طريق مطالبي وآمالي ، قلت إنك كثير الآمال يا سيدي فعن أيّ آمالك تُحدّث ؛ قال ليس لي في الحياة إلا أمل واحد ، وهو أن أُغمض عيني ثم أفتحها فلا أرى برقعاً على وجه امرأة في هذا البلد ، قلت ذلك مالا تملكه

ولا رأى لك فيه ، قال إن كثيراً من الناس يرون فى الحجاب رأيى ، ويتمنون فى أمره ما أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين تمزيقه عن وجوه نسائهم وإبرازهنّ الى الرجال يجالسنهم كما يجالس بعضهن الى بعض إلا العجزُ والضعفُ والهيبةُ التى لا تزال تُلمّ بنفس الشرقى كلما حاول الاقدام على أمر جديد فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العاديّ (١) القديم الذى وقف سداً دون سعادة الأمة وارتقائها دهراً طويلاً وأن يتمّ على يدى من ذلك مالم يتمّ على يدِ أحد غيرى من دعاة الحرية وأشياعها فعرضتُ الأمر على زوجتى فأكبرتهُ وأعظمتهُ وخُيل اليها أنى جئتها بنكبة من نكبات الدهر أو رزيئة من رزاياه وزعمَتْ أنها إن برزت الى الرجال فانها لا تستطيع أن تبرز الى النساء من بعد ذلك حياء منهن وخجلاً ولا خجلَ هناك ولا حياء ولكنهُ الموتُ والجمود والدل الذى ضربه الله على هؤلياء النساء فى هذا البلد أن يعشنَ فى قبور مظلمة من خدورهنَّ وخُمُرِهنَّ حتى يأتيهنَّ الموت فينتقلنَ من مقبرة الدنيا الى مقبرة الأخرى ، فلا بدَّ لى أن أبلغ أمنيتى ، وأن أعالج هذا الرأس القاسيَ المتحجر علاجاً ينتهى باحدى الحسنيين ، إما بكسره أو بشفائه

---

(١) العادى كالقديم نسبة الى قبيلة عاد

فورد عليّ من حديثه ما ملأ نفسي همًّا وحزنًا ونظرتُ اليه نظرةَ الراحم الراثي وقلتُ له أعالمٌ أنت أيها الصديق ما تقول ؟ قال نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها واقعةً من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيثُ وَقعَتْ ، قلت هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت برهة من الزمان في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم فهل تذكر أن نفسك حدثتك يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك فنلتَ ما تطمع فيه من حيثُ لا يشعر مالكه ، قال ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟ قلت أريد أن أقول لك إني أخاف على عرضك أن يُلمّ به من الرجال ما ألم بأعراض الرجال منك ، قال إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعيش بين الرجال من شرفها في حصن حصين لا تمتدّ اليه الأعناق ، فنداخلني ما لم أملك نفسي معه وقلت تلك هي الخُدعة التي يخدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء والنُلمة التي يعثرُبها في زوايا رؤوسكم فينحدرُ منها إلى عقولكم ومداركم فيفسدُها عليكم فالشرفُ كلمة لا وجود لها إلا في قواميس اللغة ومعاجمها فان أردنا أن نفتش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم فانا لا نجدها ، والنفس الإنسانية كالغدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يَسقط فيه حجر فاذا هو مستنقَع كدر ، والعفة

لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تَثبت الألوان على أشعَّة الشمس المتساقطة ، قال أتنكر وجود العفة بين الناس ؟ قلت لا أنكرها لأنى أعلم أنها موجودة بين البُلهِ والضعفاء والمتعمّلين ولكننى أنكر وجودها عند الرجل القادر المختابِ والمرأة الحاذقة المترفّقة اذا سقط من بينهما الحجاب وخلا وجهُ كل منهما لصاحبه

فى أىّ جوّ من أجواءِ هذا البلد تريدون أن تَبرُزَ نساؤُكم لرجالكم أيها القوم ؟

أفى جوّ المتعلمين وفيهم من سئل مرة لِمَ لمْ يتزوج ؟ أجاب نساءُ الأمة جميعاً نسائى

أم فى جوّ الطلبة وفيهم من يتوارى عن أعين أصدقائه حياءً وخجلاً ان عاد من أوربا حاملاً فى محفظته أقل من عشر صور لعشيقاته ومائة كتابِ غرامٍ منهنّ

أم فى جوّ المعلمين وفيهم من يرى فى ثمرات التربية رأى المجوس فى ثمرات الأصلاب

أم فى جوّ الرعاع والغوغاء وكثيرٌ منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً ، ويَخرج منه صهراً كريماً

وبعدُ فما هـذا الولعُ بقصة المرأه ، والتمطُّقُ (١) بحديثها ،

(١) تمطق صوت بلسانه عند استطابة الطعام

والقيام والقعود بأمرها، وأمر حجابها وسفورها، وحريتها وأسرها، كأنما قد قمتم بكل حق واجب للأمة عليكم فى أنفسكم فلم يبقَ إلاَّ أن تُفيضوا من تلك النعم على غيركم

هَذّبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم، فان عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز

أبوابُ الفخر أمامكم كثيرة فاطرُقوا أيّها شئتم ودعوا هذا الباب موصَداً فانكم ان فتحتموه فتحتمْ على أنفسكم ويلاً عظيماً، وشقاءً طويلاً

أرونى رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم فى نفسه أنهُ يمتلك هواه بين يدى امرأة يرضاها فأصدقَ ان امرأةً تستطيع أن تمتلك هواها بين يدى رجل ترضاه

إنكم تكلّفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه، وتطلبون عندها ما لا تجدونه عند أنفسكم، فأنتم تخاطرون بها فى معركة الحياة مخاطرةً لا تعلمون أَتَرْبحونها من بعدها أم تخسرونها، وما أحسبَكم إن فعلتم رابحين

ما شكت المرأة اليكم ظلماً، ولا تقدمتْ اليكم طالبة أن تحلّوا قيدها، وتطلقوها من أسرها، فما دخولُكم بينها وبين نفسها؟ وما تمضُّغُكم ليلكم ونهارَكم بقصصها وأحاديثها!

إنها لا تشكو إلاَّ فضولكم وإسفافكم ، ولُصوقكم بها ، ووقوفكم فى وجهها حيثما سارت ، وأينما حلّت ، حتى ضاق بها وجهُ الفضاء فلم تَجد لها سبيلاً إلاّ أن تسجُن نفسها بنفسها فى بيتها فوق ما سجنها أهلها ، فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ، تبرُّماً بكم ، وفراراً من فضولكم ، فوا عجباً لكم تسجُنونها بأيديكم ثم تقفون على باب سجنها تبكونها وتندُبون شقاءها

إنكم لا ترثون لها بل ترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيامٍ قضيتموها فى ديار يسيل جوّها تبرُّجاً وسُفوراً ، ويتدفق حرية واستهتاراً ، وتودون بجدع الأنف لو ظفِرتم هنا بهذا العيش الذى خلّفتموه هناك

لقد كنّا وكانت العفة فى سِقاء[1] من الحجاب موكوء[2] فما زلتم بهِ تَثقُبون فى جوانبهِ كل يوم نُقباً . والعفة تتسلّل منه قطرة قطرة حتى تَقبّض[3] وتضاءل ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلوا وِكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة

عاشت المرأة المصرية حِقبة من دهرها هادئةً مطمئنة فى بيتها ، راضيةً عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادةَ كل السعادة

---

(١) السقاء وعاء الماء من جلد السخلة (٢) أوكي القربة شد رأسها بالوكاء والوكاء الرباط (٣) تقبض يبس

فى واجب تؤديه لنفسها ، أو وقفة تقفها بين يدى ربها ، أو عَطفة تعطفها على ولدها ، أو جاسة تجلسها الى جارتها فتبثّها ذات نفسها ، وتَنْتَبِثُّها سريرةَ قابها ، وترى الشرفَ كل الشرف فى خضوعها لأبيها ، وائتمارها بأمر زوجها ، ونزولها عند رضاهما ، وكانت تفهم معنى الحب وتجهل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنهُ زوجها ، كما تحب ولدها لأنهُ ولدها . فان رأى النساء غيرها أن الحب أساس الزواج ، رأت هى أن الزواج أساس الحب ، فقلتم لها ان هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأكبر منك عقلاً ، ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لكِ من نظرك لنفسك ، فلا حقّ لهم فى هـذا السلطان الذى يزعمونه لأنفسهم عليك ، فازدرت أباها ، وتمردت على زوجها ، وأصبح البيت الذى كان بالأَمس عُرساً من الأَعراس الضاحكة مَناحة قائمة لا تهدأ نارها ، ولا يخبو أُوارها

وقلتم لها لا بد لك أن تختارى زوجك بنفسك حتى لا يخدعك أهلك عن سعادة مستقبلك فاختارت بنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها فلم يزد عمرُ سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذابُ الأَليم

وقلتم لها إِن الحب أساس الزواج فما زالت تقلّب عينيها فى وجوه الرجال مصعّدة مصوّبة حتى شغلها الحب عن الزواج

وقلتم لها إن سعادة المرأة فى حياتها أن يكون زوجها عشيقها ،وما كانت تعرف الا أن الزوج غير العشيق فأصبحت تطلب في كل يوم زوجاً جديداً يُحيي من لوعة الحب ما أمات القديمُ. فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت (١)

وقلتم لها لا بد لك أن تتعلمى لتحسنى تربية ولدك والقيام على شؤون بيتك ، فتعلمت كل شيء إلا تربيةَ ولدها والقيامَ على شؤون بيتها

وقلتم لها إنا لا نتزوج من النساء الا من نحبها ونرضاها ، ويلائم ذوقها ذوقَنا ، وشعورها شعورَنا ، فكان لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومسارح أنظاركم ، لتتجمّلَ لكم بما تحبون ، فراجعت فِهرس أعمالكم فى حياتكم صفحة صفحة فلم ترَ فيه غير أسماء الخليعات المستهتَرات (٢) والضاحكات اللاعبات ؛ والاعجاب بهنّ ، والثناء على ذكائهن وفطنتهنّ ، فتخلّعتْ واستهترتْ لتبلغ رضاكم ، وتنزل عند محبتكم ، ثم تقدمتْ اليكم بهذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً كما يعرض النخاسُ أمَته فى سوق الرقيق فأعرضتم عنها ، ونبوتمْ بها ، وقلتم لها إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات اذا سَلِمَتْ

---

(١) أفاد بمعنى استفاد (٢) استهتر فلان اتبع هواه فلا يبالى بما يفعل

لكم نساؤكم ، فرجعت أدراجها خائبة منكسرة ، وقد أباها الخليع ، وترفَّع عنها المحتشِم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت

وهكذا انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعها ، وتمشّت الظنون بين رجالها ونسائها ، فتحاجز الفريقان ، وأظلم الفضاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائى إلاَّ رجالاً مترهّبين ونساء عانسات

ذلك بكاؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها ، وعطفكم عليها

نحن نعلم كما تعلمون أن المرأة في حاجة الى العلم فليهذبها أبوها أو أخوها فالتهذيب أنفع لها من العلم ، والى اختيار الزوج العادل الرحيم فليحسن الآباء الاختيار لبناتهم وليُجمل الأزواج عشرة نسائهم ، وإلى النور والهواء تبرُز اليهما وتتمتع فيهما بنعمة الحياة فليأذن لها أولياؤها بذلك وليرافقها رفيق منهم في غَدَواتها وروحاتها كما يرافق الشاةَ راعيها خوفاً عليها من الذئاب ، فان عجزنا عن أن نأخذ الآباء والاخوة والأزواج بذلك فلننفُض أيدينا من الأمة جميعها نسائِها ورجالِها فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها

أعجبُ ما أعجَبُ له من شؤونكم أنكم تعلمتم كل شيء إلا

شيئاً واحداً هو أدنى إلى مداركــكم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو أن لــكل تُربة نباتاً ينبت فيها ، ولــكل نبات زمناً ينمو فيه .

رأيتم العلماء فى أوربا يشتغلون بكماليات العلوم بين أممٍ قد فَرَغَتْ من ضرورياتها فاشتغلتم بها مثلهم فى أمة لا يزال سوادها الأعظم فى حاجة الى معرفة حروف الهجاء

ورأيتم الفلاسـفة فيها ينشرون فلسفة الـكفر بين شعوب مُلْحدة لها من عقولها وآدابها ماقد يغنيها بعض الغَناء عن إيمانها فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة ساذَجة لا يغنيها عن إيمانها شيء

ورأيتم الرجـل الأوربىّ حرًّا مطلقاً يفعل مايشاء ويعيش كما يريد لأنه يستطيع أن يملك نفسه وخَطَواتِه فى الساعة التى يعلم فيها أنه قد وصل إلى حدود الحرية التى رسمها لنفسه فلا يتخطاها فأردتم أن تمنحوا هذه الحرية نفسها رجلاً ضعيف الارادة والعزيمة يعيش من حياته الأدبيـة على رأس منحدَر زَلِق فان زَلَتْ به قدمهُ مرّةً انحدرَ من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى يبلغ الهوة ويتردّى فى قَرارتها

ورأيتم الزوج الأوربىّ الذى أنضجت الايام رأسه وأزالت خشونة نفسه وحُرْشتها يستطيع أنــ يرى زوجته تحاصر من تشاء من الرجال ، وترافق من تشاء ، وتخلو بمن تشاء ، فيقفَ

أمام ذلك المشهد موقف الجامد المتبلّد فأردتم من الرجل الشرقى الغيور المتلهّب أن يقف موقفه ، ويستمسك استمساكه .

ورأيتم المرأة الأوربيـة الجريئة المتفتّية تستطيع فى بعض مواقفها بين الرجال أن تحتفظ بعصمتها فأردتم من المرأة المصرية الضعيفة الساذَجة أن تبرُز للرجال بروزَها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظَها

وكلُّ نباتٌ يزرع فى أرض غير أرضه ، أو ساعة غير ساعته ، إما أن تأباه الأرض فتلفِظَه ، وإما أن يَنشَب فيها فيفسدها

إنا نضرع اليكم باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقيـة من نساء الأمة آمنات مطمئنات فى بيوتهن ، ولا تزعجوهنّ بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن ، فكل جُرح من جُروح الأُمة له دواء الاّ جُرحَ الشرفِ فلا دواء له ، فان أبيتم إلاّ أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلاً ريثما تنتزع الايام من صدوركم هـذه الغيرة التى ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سعداء آمنين

*
* *

فمـا زاد الفتى على أن ابتسم فى وجهى ابتسامة الهزء والسخرية وقال تلك حماقات ماجئنا إلاّ لمعالجتها فلنصطبر عليها

حتى يقضى الله بيننا وبينها ، فقلت له لك أمرك فى نفسك وفى أهلك فاصنع بهما ما تشاء وائذن لى أن أقول لك إنى لا أستطيع أن أختلف اليك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى نفسى لأنى أعلم أن الساعة التى يَنفرجُ لى فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلنى حياءً وخجلاً ، ثم انصرفتُ وكان هذا آخر ما بينى وبينه

وما هى إلاَّ أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هتك السترَ فى منزله بين نسائه وأصدقائه ، وان بيته قد أصبح مَغشيّاً لا تزال النعال خافقةً ببابه ، فذرَفتْ عينى دمعة لا أعلم هل هى دمعة الغيرة على العرض المذال ، أو الحزن على الصديق المفقود

*
* *

مرّت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها ولا يزورنى ولا ألقاه فى طريقه إلاَّ قليلاً فأُحييه تحية الغريب للغريب من حيث لا يجرى لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق فى سبيلى

فإنى لعائد إلى منزلى ليلة أمس وقد مضى الشطر الأول من الليل إذ رأيتهُ خارجاً من منزله يمشى مِشية المضطرب الحائر وبجانبه جندى من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده فأهمنى أمره ودنوتُ منهُ فسألتهُ عن شأنه فقال لا عِلم لى بشىء سوى أن

هذا الجندى قد طرَق الساعةَ بابى يدعونى إلى مخفر الشرطة ولا أعلم لمثل هذه الدعوة فى مثل هـذه الساعة سبباً وما أنا بالرجل المذنب ولا المُريب ، فهل أستطيع أن أرجوك ياصديقى القديم بعد الذى كان بينى و بينك أن تصحبنى الليلة فى وجهى هذا علنى أحتاجُ إلى معونتك فيما قد يعرض لى هناك من الشؤون ؟ قلت لا أحبَّ إلىَّ من ذلك ومشيت معه صامتاً لا أحدثه ولا يقول لى شيئاً ثم شعَرت كأنهُ يُزوّر[1] فى نفسه كلاماً يريد أن يُفضىَ بهِ إلىَّ فيمنعَه الخجل والحياء ففاتحتهُ الحديثَ وقلت له : ألم تستطع أن تتذكر لهـذه الدعوة سبباً ؟ فنظر إلىَّ نظرة حائرة وقال إنَّ أخْوفَ ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتى الليلة حادث مؤلم فقد رابنى من أمرها أنها لم تعُد إلى منزلها حتى الساعة وما كان ذلك شأنَها من قبل ، قلت أما كان يصحبها أحد ؟ قال لا ، قلت ألا تعلم المكان الذى ذهبت اليهِ ؟ قال لا ، قلتُ وممَّ تخاف عليها ؟ قال لا أخاف شيئاً سوى أنى أعلم أنها امرأةٌ غيور حمقاء فلعل بعض الناس حاول العبث بها فى طريقها فتَمرستْ عليه فوقعتْ بينهما واقعةٌ انتهى حديثها إلى رجال الشرطة ، وكنا قد وصلنا إلى المخفر فاقتادنا الجندى إلى قاعة المأمور حتى صرنا بين يديه فأشار

---

(١) زور الكلام في نفسه هيأه

إلى جندى أمامه إشارةً لم نفهمها ثم استدنى الفتى إليه وقال له يسوءنى يا سيدى أن أقول لك إن رجال الشرطة قد عثروا الليلة فى مكان من أمكنة الريبة على رجل وامرأة فى حال غير صالحةٍ فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأةُ أن لها بك صلةً فدعوناك لتكشف لنا الحقيقةَ فى أمرها وأمرِ صاحبها فإن كانت صادقة أذنّا لها بالانصراف معك إكراماً لك ، وإبقاءً على شرفك ، وإلا فهى امرأة فاجرة لا نجاة لها من قانون الفاجرات ، وهاهما وراءك فانظرهما ، وكان الجندى قد جاء بهما من غرفة أخرى فنظرَ فإذا المرأةُ زوجته ، وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخةً رَجَفَتْ لها جوانب المخفر وملأت نوافذَه وأبوابه عيوناً وآذاناً ، ثم سقط فى مكانه مغشيًّا عليه ، فأشرتُ على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ثم حملْنا الفتى فى مركبة إلى منزله ودعونا الطبيبَ فقرر أنهُ مصاب بحمى دماغية شديدة ولبثت ساهراً بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح فانصرف الطبيب على أن يعود متى دعوناه وعَهِد إلىَّ بأمره فلبثت بجانبه أرثى لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك فى مضجَعه ثم فتح عينيه فرآنى فلبث شاخصاً إلىَّ هنيهة كأنما يحاول أن يقول لى شيئاً فلا يستطيعه فدنوت منه

وقلت هل من حاجةٍ يا سيدى ؟ فأجاب بصوت ضعيف خافت : حاجتى أن لا يدخل علىَّ من الناس أحد ، قلت لن يدخل عليك إلا من تريد ، فأطرق هُنيهة ثم رفع رأسه فاذا عيناه مبتلّتان بالدموع فقلت ما بكاؤك يا سيدى ؟ قال أتعلم أين زوجتى الآن ؟ قلت وماذا تريد منها ؟ قال لا شيء سوى أن أقول لها إنى عفوت عنها ، قلت إنها فى بيت أبيها ، قال وارحمتاه لها ولأبيها ولجميع قومها فلقد كانوا قبل أن يتصلوا بى شرفاء أمجاداً فألبستُهم مذ عرفونى ثوباً من العار لا تبلوه الأَيام

من لى بمن يبلغهم عنى جميعاً أننى رجل مريض مُشرِف وانى أخشى لقاء الله إن لقيتُه بدمائهم واننى أضرع اليهم أن يصفحوا عنى ، ويغفروا ذنبى ، قبل أن يسبقَ إلىَّ أجلى

لقد كنت أقسمت لأَبيها يوم اهتدَيتُها (١) أن أصون عرضها صيانتى لحياتى ، وأن أمنعها مما أمنع منهُ نفسى ، فحنِثْتُ فى يمينى فهل يغفرُ لى ذنبى فيَغفِرلي الله بغفرانهِ

إنها قتلتْنى ولكنى أنا الذى وضعت فى يدها الخنجر الذى أغمدَتْه فى صدرى فلا يسألْها أحد عن ذنبى

البيت بيتى والزوجة زوجتى والصديق صديقى وأنا الذى

---

(١) اهتداى الرجل امرأته جمعها اليه وضمها

فتحت باب بيتي لصديقي الى زوجتي فلم يُذنب إليّ أحدٌ سواي

ثم أمسك عن الكلام لحظة فنظرت اليه فاذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئاً فشيئاً حتى لبستْ وجهه فزفرَ زفرةً خلت أنها خرقت حجاب قلبه ثم أنشأ يقول :

آه ما أشد الظلام أمام عينيّ وما أضيق الدنيا في وجهي

في هذه الغرفة على هذا المقعد تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان فتمتلأ نفسي غبطةً وسروراً وأحمدُ الله على أن رزقني بصديق وفيّ يؤنس زوجتي في وحدتها ، وزوجةٍ سمحةٍ كريمةٍ تُكرم صديقي في غيبتي ، فقولوا للناس جميعاً إن ذلك الرجل الذي كان يفخر بالأمس بذكائهِ وفطنته ويزعم أنهُ أكيسُ الناس وأحزمهم قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله الى الغاية من البلاهة ، وغبيّ الى الغاية التي لاغاية وراءها

والهفاَ على أُم لم تلدني وأبٍ عاقر لانصيب له في البنين !

لعل الناس كانوا يعلمون من أمري ما كنت أجهل ، ولعلهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويبتسم بعضهم الى بعض أو يحدّقون اليّ ويطيلون النظر في وجهي ليروا كيف تتمثلُ البلاهة في وجوه البُله ، والغباوةُ في وجوه الأغبياء ، ولعل الذين كانوا يَطيفون بي ويتوددون اليّ من أصدقائي

إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجلى ، ولعلهم كانوا يسمونني فيما بينهم وبين أنفسهم قوّاداً ، ويسمون زوجتى مومساً ، وبيتى ماخوراً (١)

فوارحمتاه لى إن بقيتُ على ظهر الأرض بعد اليوم ساعةً واحدة ، ووالهفاً على زاوية من زوايا قبر عميق يطوينى ويطوى عارى معى

ثم أغمض عينيه وعاد الى ذهوله واستغراقه

وهنا دخلت الحجرةَ مرضع ولده تحمله على يدها حتى دنت به من فراشه فتركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على يديه حتى علا صدرَ أبيه فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه وضمه اليه ضمةَ الرفق والحنان وأدنى فمه من وجهه كأنما يريد أن يقبله ثم انتفض فجاةً واستسرّ بشرُه ودفعه عنه بيده دفعاً شديداً فانكفأ على وجهه يبكي ويصيح وقال أبعدوه عنى ، لا أعرفه ، ليس لى أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه أين مكانه واذهبوا به اليه ، لا ألبس العار فى حياتى وأتركه أثراً خالداً ورائى بعد مماتى ، وكانت المرضع قد سمعت صياح الطفل فعادت اليه وحملته وذهبت به فسمع صوتَهُ وهو يبتعد عنه شيئاً فشيئاً فأنصت اليهِ واستعبر

---

(١) الماخور بيت الريبة

باكياً وصاح أرجعوه اليّ ، فعادت بهِ المرضع فتناوله من يدها وأنشأ يقلب نظره فى وجهه ويقول

فى سبيل الله يابُنى ماخلّف لك أبوك من اليُتم وما خلفت لك أمك من العار فاغفر لهما ذنبهما اليك فلقدكانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة القضاء فسقطت ، وكان أبوك حسن النية فى جريمته التى اجترمها فأساء من حيث أراد الاحسان

سواء أكنتَ ولدى يابُنى أو ولد الجريمة فانى قد سعِدت بك برهه من الدهر فلا أنسى يدك عندى حياً أو ميتاً

ثم احتضنه اليه وقبله فى جبينه قبلة لا أعلم هل هى قبلة الأب الرحيم ، أو الرجل الكريم

وكان قد بلغ منه الجهد فعاودته الحمى وغامت نارُها فى رأسه وما زال يثقل شيئاً فشيئاً حتى خِفت عليه التلف فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردّها مملوءة يأساً وحزناً

ثم بدأ ينزع نزعا سديداً وبئن أنيناً مؤلماً فلم يبق عين من العيون المحيطة به الا ارفضّت عن كل ماتستطيع أن تجود به من مدامعها

فإنّا لجلوسٌ حوله وقد بدأ الموتُ يسبل أستارَه السوداء حول

سريره واذا بامرأة متّزرة بإزاراسود قد دخلت الحجرة ونقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ثم أكبت على يده الممتدة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له

لاتخرج من الدنيا وأنت مرتاب فى ولدك فانّ أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب الى ربك تسأله عن قولها أنها وان كانت دنت من الجريمة فانها لم ترتكبها ، فاعفُ عنى ياوالدى ولدى واسأل الله عند ماتقف بين يديه أن يلحقنى بك فلا خير لى فى الحياة من بعدك

ثم انفجرتْ باكية ففتح عينيه وألقى على وجهها نظرة باسمة كانت هى آخر عهده بالحياة وقضى

*
* *

الآن عدتُ من المقبرة بعد مادفنت صديقى بيدى وأودعت حفرةَ القبر ذلك الشبابَ الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعى وزفراتى فلا يُهوّن وجدى عليه الا أن الأمة كانت على باب خطر من أخطارها فتقدم هو أمامها الى ذلك الخطر وحده فاقتحمه فمات شهيداً بين يديها فنجت بهلاكه

الذكرى

« مترجمة »

وقف أبو عبد الله آخرُ ملوك غرناطة[1] بعد انكساره أمام جيوش الملك فردناند والملكة ايزابلا[2] على شاطئ الخليج الرومى تحت ذيل جبل طارق قبل نزوله الى السفينه المعده لحمله إلى أفريقية وقد وقف حوله نساؤُه وأولاده وعظماء قومه من بني الأحمر فألقى على مُلكه الذاهب نظرةً طويلةً لم يسترجعها إلا مبللة بالدمع ثم أدنى رداءه من وجهه وأنشأ يبكي بكاءً مرًّا ونَشِيج نشيجاً محزناً حتى بكى من حوله لبكائه وأصبح شاطئ البحر كأنه مَناحةٌ ثائرةٌ تتردد فيها الزفرات ، وتستبق العبرات ،

---

(١) هي حاضرة ملوك بني الاحمر في الاندلس . وهي آخر مدينة بقيت في يد العرب بعد جلائهم عن أكثر بلاد الاندلس فلما اجلوا عنها تم بذلك جلاؤهم عن الاندلس جميعها

(٢) كانت [illegible] في اواخر حكم العرب في الاندلس عبارة عن عدة ممالك صغيرة فانضم بعضها الى بعض حتى أصبحت مملكتين قويتين (الاراغون) و (قشتلية) فتزوج فرديناند ملك الاراغون بايزابلا ملكة قشتلية سنة ١٤٦٩ واتحدا على طرد العرب من غرناطة وتم لهما ذلك بعد حروب كثيرة

فانهُ لواقف موقفه هـذا وقد ذَهِلَ عن نفسهِ وموقفهِ إذ أحس هاتفاً يهتف باسمهِ بصوت عالٍ كأنما ينحدر إليهِ من علياء السماء فرفع رأسه فاذا شيخ ناسك منكئٌ على عصاه واقف على باب مغاره من مغارات الجبل المشرف عليهِ ينظر اليهِ ويقول

نعم لك أن تبكي أيها الملك الساقط على ملكك [illegible] .
فانك لم تحفظه احتفاظ الرجال

إنك ضحكتَ بالأمس كثيرا ، فلكِ اليومَ [illegible]
ضحكت بالأمس ، فالسرورُ نهارُ الحياة ، والحزن ليلها
ولابد للنهارِ الساطع ، أن يعقبه الليل القاتم

لو كان ما ذَهَب من يدك من مُلكك ذهب بصدمة من صدمات القدر أو نازلة من نوازل القضاء من حيث لا حولَ لك في ذلك ولا حيلة لهان أمره عليك ، أما وقد أضعتَهُ بيدك ، وأسلمتَهُ إلى عدوك باختيارك ، فابكِ عليه بكاء النادم المتحسر الذى لا يجد له عزاء ولا سلوى .

لا أظلم الله عباده [illegible] ، ولا يريد بواحد منهم في شأن من شؤونه شراً ولا ضيراً ، ولكنهم يمشون على أفواه الهوة العميقة فتزلّ بهم أقدامهم ، ويقفون تحت الصخرة المتدلية فتسقط على رؤوسهم

لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق فأبيت إلاَّ المُلك والسلطان فنازعت عمَّك الأمرَ واستعنتَ عليه بعدوك وعدوه فتناول رأسيكما وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدميكما قَليب[1] من الدم فغرقتما فيه معاً

لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوام أنتظر هذا المصير الذى صرتم إليه وأترقب الساعة الذى أرى فيها آخر ملك منكم يرحل عن هذه الديار رحلةَ لا رجوعَ له من بعدها ، لأنى أعلم أن المُلك الذى يتولى أمره الجاهلون الأغبياء ، لا دوام له ولا بقاء

اتَّخذ بعضكم بعضاً عدوًّا ، وأصبح كل منكم حربا على صاحبه ، فسُقتم المسلمين إلى ميادين القتال يَضرب بعضُهم وجوهَ بعض والعدوّ رابض من ورائكم يتربص بكم الدوائرَ ويرى فى نفسه أن كلا منكم قائد من قوّاد جيشه يدفعه بين يديه لقتال أعدائهِ ، والمناضلة عن مُلكه ، حتى رآكم تتهافتون[2] على أنفسكم ضعفا ووهنا فما هى إلاّ جولة أو جولتان حتى ظفر بكم جميعا

ستقفون غداً بين يدى الله يا ملوك الاسلام وسيسألكم عن الاسلام الذى أضعتموه وهبطتم بهِ من علياء مجده حتى

---

(١) القليب البئر (٢) تهافت الشيء تساقط وتتابع

ألصقتم أنفه بالرَغام[1] ، وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعَفين ، وعنْ مدن الإسلام وأمصاره التى اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها فى أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذِمارها ، فلم تفعلوا حتى غلبكم أعداؤكم عليها ، فأصبحتم تعيشون فيها عيش الأذلّاء ، أو تُطردون منها كما يُطرد الغرباء ، فماذا يكون جوابكم إن سُئلتم عن هذا كله غداً ؟

ها هى النواقيس ترنّ فى رؤوس المآذن بدل الأذان ، وها هى المساجد تطأ نعالُ الصليبيين فى تربتها مواقعَ جباه المسلمين وها هو المسلم يفرّ بدينه من مكان الى مكان ، ويلوذ بأكناف الهِضاب والشِعاب ، لا يستطيع أن يؤدىَ شعيرة[2] من شعائر دينه إلاّ فى غار كهذا الغار الذى أعيش فيه

ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى ، لا نظام لهم ولا مُلك ولا سلطان كما يعيش اليهود المشرّدون فى آفاق البلاد ، فقد كان ذلك خيراً لهم من أن يتولى أمرهم رجال من أمثالكم طامعون مستبدون يضعون فى أعناقهم جميعاً غُلاً واحداً يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون ذوداً عن أنفسهم ولا دفعاً ، وما تَفعلُ الفوضى بأمةٍ ما يَفعلُ بها الاستبداد

---

(١) الرغام التراب (٢) الشعيرة كل ما جعل علامة لعبادة الله

سيسألكم الله يابنى الأحمر عنى وعن أولادى الذين انتزعتموهم من يدى انتزاعاً أحوجَ ما كنتُ إليهم ، وسُقتموهم إلى ميادين القتال ليقاتلوا إخوانَهم المسلمين قِتالاً لاشرف فيهِ ولا فخار ، حتى ماتوا جميعاً موت الأذلاَّء الادنياء ، فلا أنتم تركتموهم بجانبي آنس بهم فى وحشتي ، وألجأ إلى معونتهم فى شيخوختي ، ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدانِ قتالِ شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداءً عن دينهم ووطنهم

فها أنذا عائش من بعدهم وحدى فى هذا الغار الموحش فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكى عليهم ، وأسأل الله أن يلحقنى بهم ، فمتى يستجيب الله دعائى ؛

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهَهُ ومشى بقدم مطمئنة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون

فنالت كلماتُهُ من نفس الأمير مالم يَنل منها ضياعُ ملكه ، وسقوط عرشه ، فصاح « ماهذا بشراً ، إنما هو صوت العدل الالهى يُنذرنى بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضى فليصنع الله بى ما يشاء فعدلٌ منهُ كل ماصنع »

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشقّ عُباب الماء شقّاً فسجَّل التاريخ فى تلك الساعة أنْ قد

تمَّ جَلاء العرب عن الأندلس بعد ما عمَروها ثمانمائة عام [1]

*
* *

بعد مرور أربعة وعشرين عاماً على تلك الحوادث لم يبقَ فى أفريقية حيٌّ من بنى الأحمر إلاّ فتى فى العشرين من عمره اسمهُ سعيد لم يرَ غرناطة ولا قصر الحمراء ولا المرج ولا جنة العريف ولا نهر شنّيل ولا عين الدمع ولا جبل الثلج [2] ولكنه مازال يحفظ فى ذاكرته من عهد الطفولة تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التى كان يترنم بها نساء أهله حول مهده ويرددْن فيها ذكرَ آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعزه سلطانهم فى تلك البقاع ، وتلك المراثىَ المحزنةَ المؤثرة التى بكى فيها شعراء الأندلس [illegible] الساقط والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المراثىَ بنغمة شجية [illegible] عبرته ، وتهيج أشجانه ، فلا يزال يبكى وينتحب [illegible] على [illegible]

(١) [illegible] العرب [illegible] ١٢ [illegible] ٧ [illegible] ٨
١٢ ، ١ م (٢) [illegible] وصور العالم ولا [illegible] اليه [illegible] بجمال منظره [illegible] لغرناطة [illegible] المدينة من أعلاها الى أدناها [illegible] وجبل الثلج [illegible] لا [illegible] كثيرة وآثار [illegible]

وكان لايتمنى على الله من كل مايتمنى امرؤ على ربه فى حياته الا أن يرى غرناطة ساعةً من زمان يشفى بها غلةَ نفسهِ ثم ليصنع الدهر بهِ بعد ذلك مايشاء

وكان كلما همّ بالذهاب اليها قعد بهِ عن ذلك أن وراءه عجوزاً من أهله مريضة ماكان يستطيع أن يتركها ولا يجد من يعتمد عليهِ فى القيام بشأنها حتى وافاها أجلها فركب البحر من سبتة إلى شاطئ ملَقة ثم انحدر منها الى غرناطة متنكرا في ثوب طبيب عربى من أطباء الأعشاب يتبقّل (١) فى جبال الأندلس وسهولها حتى بلغ ضاحيتها ساعة الأصيل ، فوقف بجانب هضْبة من هضاب جبل الثلج فرأى الأمواه تنزلق عنه من جميع نواحيه فى هدوء وسكون كأنها فوق سطحهِ اللامع المتلألئ قميص من النور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل الى سفحه فإذا هى حبات ناعمة بيضاء مذعورة تنبعث ههنا وههنا لاهمّ لها الاّ النجاة من بد مُطاردها حتى تعثر بجدول ماء فى طريقها فتندّغم فيهِ وتنساب فى أحشائه

ثم التفت الى المدينة فرأى على البعد أبراجها العقيقية الحمراء ، وقبابها العالية الشماء . و[illegible] الذاهبة في جوّ السماء ، فوقف

---

(١) تبقل خرج لطلب البقل

أمام هـذا المنظر الجليل المَهيب موقف الخاشع المتخضّع وضم إحـدى يديه إلى الأخرى ووضعهما على صـدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدى صـلاته ، ولبث على ذلك برهة ثم صاح بصوت عال رددته الغابات والحَرَجات يقول

هذا ميراث آبائى وأجدادى لم يبقَ لى منه الاَّ وقفة بين يديه كوقفة الثاكل المفجوع بين أيدى الاطلال البوالى، والآثار الدوارس

هـذه مضاجعهم ينام فيها أعداؤهم وهم لا مضاجع لهم الاّ رمال الصحراء وكُثبان الفلوات

هذه قصورهم تُطل على الأرض الفضاء من عيون نوافذها كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعَمُروها كما كانوا فلا يفعلوا

هذه قبابهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلى تدعو الله أن يعيد إليها بُناتها وحُماتها فلا يستجاب لها دعاء

فى هذه البساتين كانوا يَنعَمون ، وتحت هـذه الظلال كانوا يَقيلون ، وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغـدون ويروحون ، واليوم لا غادٍ منهم ولا رائح ، ولا سانح تحت هذه السماء ولا بارح

ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيمزقها بين يديهِ تمزيقا فتهافَت[1] على نفسهِ وهو يقول

---

(١) تهافت تساقط

هكذا تَدول الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار . وتنتشر سحابة الموت على وجه الحياة

ثم توسد ذراعه واستغرق فى نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء فلم يستفق حتى مضت دولة الليل فمشى إلى نهر جارٍ فى سفح الجبل فصلى عنده صلاة الفجر ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوى اليهِ فلم يجد فى طريقه من يرشده إلى طَلِبته حتى بلغ نهر شِنّيل فوقف على صفته يتفقّد البذور ويتلمّس الأعشاب وينتظر يقظة المدينة بعد هجعتها

فانهُ لواقف موقفه هذا إذ انفتح بين يديهِ باب قصر عظيم وإذا فتاة اسبانية خارجة منهُ قد أسبلت على وجهها خِماراً أسود شفافًا وأرسلت على صدرها صليبًا ذهبيًا صغيراً ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس فامحتْه فى مكانه فأدهشها موقفه فدنت منهُ ورفعت قناعها عن وجهها فإذا الشمسُ طالعة حسنا وبهاء وقالت لهُ بلسان عربى تخالطه لكنة أعجمية : أغريبٌ أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؛ قال نعم لقد نزلتُ بهِ الساعة فلم أعرف طريق الخان الذى يأوى إليهِ الغرباء ولم أجد فى طريقى من يدانى عليهِ ، فسمعَتْ فى صوتهِ رنّة الشرف ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره وأشارت إليهِ أن يتبعها

لتدله على مايريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيته بابتسامة عذبة وقالت لهُ : لاتنسَ أن تزورنى أيها الغريب كلما عرضت لك حاجة : ثم مضت إلى كنيستها

*
* *

كما أن السماء فى ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضىء صفحتها ، وتمرّ بها الشهب فتلمع فى أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها محا ضوءها ضوءَ جميع تلك النيرات ، كذلك القلب الإنسانى لاتزال تمرّ بهِ مختلفات العواطف وأشتات الأهواء مجتمعةً ومتفرقةً حتى إذا أشرقت فيهِ شمس الحبّ غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء

فقد أصبح الأمير ينظر الى غرناطة منذ اليوم بعين غير التى كان ينظر بها اليها من قبل ، ويرى فى وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت ، وسكنت نائرته ، وبَرَدت جوانحه ، وهدأت فى نفسهِ ثورة الغضب التى كانت تشتعل بين جنبيهِ اشتعالاً ، فكان اذا مرّ بمسجد من تلك المساجد التى استحالت إلى كنائس استطاع أن يقف أمامهُ هنيهة علّهُ يرى الفتاة الاسبانية بين الداخلات إليهِ أو الخارجات منهُ ، وإذا رأى الصليب مشرِفا على رأس مئذنته ذكر ذلك

الصليبَ الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم اللقاء فاغتفر منظرَ هذا لمنظرَ ذاك ، وإذا سمع أصواتَ النواقيس ترِنّ في أجواز الفضاء ذَكر انهُ كان يسمع ذلك الصوت الرنان في الساعة التي رآها فيها فأَنِسَ بهِ وسكنتْ نفسهُ إليه

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا همّ لهُ إلاَّ أن يمرَّ صبيحة كل يوم بضفة نهر سِنّيل غادبا أو رائحًا يقلب نظره في أبواب القصور المشْرفة على ذلك النهر علّهُ يعرف قصر الفتاة فلا يعرفهُ ، وفي وجوه الغاديات والرائحات من الفتيات علهْ يراها بينهنّ فلا يراها ، حتى إذا نال منهُ الياس انكفأ راجعا إلى مقبرة آبائه في ظاهر المدينة فجلس بين القبور يَذرِف دموعا غزارا لا يعلم هل هي دموع الذكرى أو دموع الغرام

*
* *

نَكَب الدهر فلوريدا منذ عامين نكبة لا تزال لوعتها متصلة بقلبها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية العصابة المقدسة التي قامت في وجه الحكومة أعواما طوالا تطالبها بالحرية الدينية والمساواة بين الشعوب المحكومة على اختلاف مذاهبها وأجناسها حتى أعيا رجالَ الحكومة أمرُها فدسوا لرئيسها من قتلهُ غِيلة تحت ستار الظلام ، فحزنت عليه ابنته وعلى أمها التي ماتت على

أثره حزناً شديداً ما كان يفارقها في جميع غدواتها وروحاتها ، فأصبحت وهي لم تسلخ الثامنة عشرة من عمرها تعيش في قصرها عيش الزاهدين المتبتّلين ، فكان لا يراها الرائي إلاّ خارجة من قصرها بالغَدَاة أو عائدة إليه بالعشيّ لا يصحبها إلاّ غلامها ، أو جالسة في محراب كنيستها تدعو الله وتبتهل إليهِ ، أو واقفة على رسوم الدولة الماضية وآثارها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها في غابات غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود الى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى سمّاها أهل غرناطة « الراهبة الجميلة »

فانها لسائرةٌ يوماً بجانب مقبرة بني الأحمر إذ لمحتْ على البعد فتى عربياً مُكبّاً على قبر بين يديه كأنما يقبّل صفائحه أو يبلل تربته بدموعه فرثتْ له ومشت اليهِ حتى دانته فأحسّ بها فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له : انك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى فابكهم فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم : قال أترثين لهم ياسيدتي ؟ قالت نعم لأنهم كانوا عظماء فنكبهم الدهر وانهم أحق بدموع الباكين ، من العظماء الساقطين ، قال شكرا لك ياسيدتي فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرد العزاء يدب في صدري منذ وطئت قدماي أرضكم هذه ، قالت هل زرت قصورهم وآثارهم

التى تركوها وراءهم من بعدهم فى هـذه الديار ؟ فأطرق قليـلاً ثم رفع رأسه فإذا دمعةٌ تترجح فى مقلته وقال : لا ياسيدتى فقـد حاولت الدنو منها فطردنى عنها الموكلون بأبوابها كأنما كانوا يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم فى هـذا العالم جميعه من هو أولى بزيارتها منى : قالت أنَمتَّ (١) الى أحد من أصحابها بنسب أو رحم ؟ قال لا ياسيدتى ولـكنى عبدهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم ، فلا أنسى ولاءهم ما حييت ، قالت إن رأيتك غداً فى مثل هذا الساعة فى هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها ، قال لئن فعلت لا يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك منى ، فحيته وانصرفت ومضى هو إلى خانه بين صبابة تقيمه وتقعده ، وأمل يميته ويحييه

وفت فلورندا لصديقها العربى بما وعدته فجاءته فى اليوم الثانى فأزارته بعض الآثار ثم جاءته فى اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها ، وهكذا ما زالا يجتمعان كل يوم ويفـترقان ويختلفان إلى ماشاءا من الرسوم والآثار ولا ينكر الناس من أمرهما شيئاً فقد كانوا يقولون إذا رأوهما معاً . إن الراهبة الجميلة تحاول أن تهدى الفتى العربى إلى دينها القويم . حتى استحال العطف الذى كانت

---

(١) مت اليه بالشيء توسل به اهـ

تضمره له فى نفسها مع الأيام إلى حبّ شديد ، وكذلك العطف دائماً طريق الحب ، أو هو الحب نفسه لابساً ثوباً غير ثوبه ، إلا أن أحداً منهما لم يكاشف صاحبه بما أضمره له فى نفسه حتى جاء اليوم الذى عزما فيه على زيارة قصر الحمراء وهو آخر ما بقى بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء بينهما بعد اليوم

***

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تُطاول السماء وطودا بناطح الجوزاء ، وهضبة تشرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ، وجبلاً تحسُر عن قمته العيون . وتضل فى جوانبه الظنون ، وحصناً تتقاصر عنهُ يد الأيام ، وتتهافت من حوله السنين والاعوام ، ثم دخل فإذا فناء كبير ، وجنة وحرير ، وقباب تفضى الى النجوم بالأسرار ، وأبراج تنزلق عن سطحها يد الأقدار ، وبهو مفروشة بألوان الحصباء . كأنها الرياض الزهراء ، وجدران صقيلة ملساء ، تصف ما بين يديها من الأشياء ، كما تصف المرآة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لجة متلاطمة الأمواج ، يحبسها عن الجريان لوح من زجاج ، فمشى يقلب نظر العظة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ، ويترنّم فى نفسه بقول القائل :

وقفت بالحمراء مستعبراً   معتبراً أندب أشتاتا

فقلت ياحمراء هل رجعة   قالت وهل يرجع من ماتا
فلم أزل أبكى على رسمها   هيهات يغنى الدمع هيهاتا
كأنما آثار من قد مضوا   نوادب يندبن أمواتا

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صحناً مفروشاً ببساط من المرمر الأصفر قد دارت به فى جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة النّحاف الطوال وتراءت فى جوانبه حجُرات متقابلات ، تعلوها قباب مشْرِفات ، فعلم أنها حجُرات الأمراء والأميرات من أهل بيته ، فهاجت فى نفسه الذكرى وشعَرأن صدره يحاول أن ينشقّ عن قلبه حزنا ووجداً وأحس بحاجته إلى البكاء. فاستحيي أن يبكيَ أمام فلوروندا فتركها فى مكانها لاهية عنهُ بالنظر إلى بعض النقوش ومشى إلى بعض تلك القاعات حتى داناها فكان أوّل ما تناول نظره منها سطراً مكتوبا على بابها فما قرأه حتى صاح صيحة منددبة قائلاً « واأبتاه » وسقط مغشياً عليه ، فلم يستفق إلا بعد ساعة طويلة ففتح عينيه فوجد رأسه فى حجر فلوروندا ووجد فى عينيها آثار البكاء ، فقالت له لقد كنتُ أعلم قبل اليوم أنك تكاتمنى شيئاً من أسرار نفسك والآن عرفت أنك لست عبد بنى الأحمر ولا مولاهم كما تقول ولكنك أحد أمرائهم وأنك الساعة فى قصر جدك وأمام حجرة أبيك ، فما

أسوأ حظكم يا بنى الأحمر ، وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين . فلم يجد سبيلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره فأنشأ يقص عليها قصته وقصة أهل بيته وما صنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتي اليوم ، فلما فرغ من قصته نظر اليها نظرة منكسرة وقال لها : يا فلورندا ان جميع ما لقيته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذى تدّخره لى الأيام غداً : قالت وأى شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيهِ ؟ فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال : إننى أستطيع أن أحتمل كل شيء في الحياة إلا أن أفارقك فراقاً لا لقاء بعده . قالت أتحبنى أيها الأمير ؟ قال نعم حب الزهرة الذابلة ، للقطرة الهاطلة ، قالت وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدين بدينك ؟ قال نعم لأن طريق الدين فى القلب ، غير طريق الحب ، ولقد وجدتُ فيك الصفات التى أُحبها فاحببتك لها ، ثم لا شأن لى بعد ذلك فى ما تعتقدين . قالت وهل تستطيع أن تحب بلا أمل ؟ قال ولم لا يكون الحب نفسه أملا من الآمال التى نجد فيها السعادة اذا ظفرنا بها ؟ ومتى كان للسعادة فى هذه الحياة نهاية محدودة فنأبى إلا أن نمسك بحلقاتها حلقة حلقة حتى نصل إلى نهايتها ؟

وكان الليل قد أظلّهما فبرحا مكانهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا

الموضع الذى اعتادا أن يفترقا فيهِ فوضعت فلورندا يدها فى يده وقالت له « سأحبك كما أحببتنى أيها الأمير ، وسيكون حبى لك بلا أمل كحبك ، ولقد فرق الدين بين جسدينا ، فليجمع الحب بين قلبينا » وتركته وانصرفت

ثم مرّت بهما بعد ذلك أيام سعِدا فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيا فى حياتهما الماضية من شقاء وعناء فأصبحا فوق أرض غرناطة وتحت سمائها طائرين جميلين يطيران حيث يصفو لهما الجو وتترقرق صفحة الهواء ، ويقعان حيث يطيب لهما التغريد والتنقير

فليت الدهر ينام عنهما ويتركهما وشأنهما ولا ينفِس عليهما هـذه الساعات القليلة من السعادة التى اشترياها منه بكثير من دموعهما وآلامهما والتى لا يملكان من سعادات الحياة سواها فإن خسراها خسرا كل شيء

بينما هما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مرّ بهما « الدون رودريك » ابن حاكم مدينة غرناطة فرآهما فى مجلسهما هذا من حيث لا يريانه ، وكان قد رأى فلورندا قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى منزلها أياماً يتحبب اليها ويدعوها إلى الزواج منـه فأبت أن تُصغى اليهِ وقالت لهُ إنى لا أتزوج

ابن قاتل أبى ، فانصرفَ بلوعة لا تزال كامنة فى نفسهِ حتى اليوم ، فلما رآها جالسة مجلسَها هـذا زَعم فى نفسهِ انها ما أوصدتْ باب قلبها فى وجههِ إلاّ لأنها كانت قد فتحتهُ من قبـل لذلك الفتى العربى الجميـل الذى يجالسها ، فذهب إلى قصرها فى اليوم الثانى ليفضى اليها بما قام فى نفسهِ فأبت أن تقابلهُ فخرج غاضباً ساخطاً يحدّث نفسه بأفظع أنواع الانتقام

وما هى إلاّ أيام قلائل حتى سيق الأمير سعيد بن يوسف ابن أبى عبـد الله سليل بنى الأحمر ملوكِ هذه البلاد بالأمس ومؤسسى مجدها وعظمتها ، وبُناةِ قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، ذليـلاً مهاناً إلى محكمة التفتيش [1] متهماً بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها وهى عندهم أفظع الجرائم وأهولُها

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسألهُ الرئيس عن تهمتهِ فأنكرها فلم يحفِل بإنكاره وقال لهُ لا يدلّ على براءتك إلاّ أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح ، فطار الغضب فى دماغه وصرخ صرخةً دوّت بها أرجاء القاعة وقال

---

(١) اسست هذه المحكمة أساساً على أثر جلاء العرب منها لتعذيب المسلمين واليهود الباقين فيها وقد ارتكبت فظائع كثيرة مشهورة

فى أى كتاب من كتبكم المقدسة وفى أى عهد من عهود أنبيائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم، ولا يقولون بقولكم

من أى عالم من عوالم الأرض أتيتم بهذه العقول التى ترون بها ان القلوب تُساق إلى الإيمان سوقا، وان العقائد تُسقى للناس كما يُسقى الماء والخمر

أين العهد الذى أخذتموه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركونا أحراراً فى عقائدنا وأعمالنا وأن لا تؤذونا فى عاطفة من عواطف نفوسنا، ولا فى شعيرة من شعائر ديننا؟

أهذا الذى تصنعون بى اليوم والذى صنعتم بالمسلمين بالأمس هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعى للذمم

لكم أن تفعلوا ما تشاؤون فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحتم أصحاب القوة والسلطان فيها وللسلطان عزة لا تبالى بعهد ولا وفاء

إن العهود التى تكون بين الأقوياء والضعفاء انما هى سيف قاطع فى يد الأولين، وغُل ملتفّ على أعناق الآخرين، فلا أقال الله عثرة البلهاء، ولا أقرّ عيون الأغبياء

أنتم أقوياء ونحن ضعفاء، فانتم أصحاب الحق الأبلج والحجة القائمة، فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذى خولتكم إياه قوتكم

اسفكوا من دمائنا ما شئتم ، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم واملكوا علينا عقولنا وقلوبنا حتى لا ندين الا بما تدينون ، ولا نذهب الا حيث تذهبون ، فنحن عجزنا عن أن نكون أقوياء ، فلا بد أن ينالنا ماينال الضعفاء

ثم حاول الاستمرار فى حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق الى ساحة الموت التى هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقاً فسيق اليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً ونساءً ، وما جرد الجلّادُ سيفَه فوق رأسه حتى سمع الناس صرخةَ امرأةٍ بين الصفوف فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها ، وما هى الا غمضةٌ وانتباهةٌ أن سقط ذلك الرأس الذى ليس له مثيل

***

يرى المارّ اليومَ بجانب مقبرة بنى الأحمر فى ظاهر غرناطة قبراً جميلاً مزخرفاً هو قطعة واحدة من الرخام الأزرق الصافى قد نُحتَت فى سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر فيهوى اليها الطير فى أيام الصيف الحارَّة فيشرب منها ونُقشَت على ضلع من أضلاعها هذه السطور

« هذا قبر آخر بنى الأحمر »

« من صديقته الوفية بعهده حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

الهاوية

« موضوعة »

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها !

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التى عشتها فى هذا العالم إلا عاماً واحداً مر بى كما يمر النجم الدهرى فى سماء الدنيا ليلة واحدة ثم لا يراه الناس بعد ذلك

قضيت الشطر الأول من حياتى أفتش عن صديق ينظر الى أصدقائه بعين غير العين التى ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزنى ذلك حتى عرفت فلاناً منذ ثمانى عشرة عاماً فعرفت امرأً ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف فى ثياب رجل إلا وجدتها فيه ولا تخيلت صورة من صور الكمال الانسانى فى وجه إنسان إلا أضاءت لى فى وجهه فجلت مكانته عندى ونزل من نفسى منزلة لم ينزلها أحد من قبله وصفت كأس الود بينى وبينه لا يكدرها علينا مكدر حتى

عرَض لى من حوادث الدهر ما أزعجنى عن مستقرى فهجرت القاهره إلى مسقط رأسى غير آسفٍ على شىء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم فتراسلنا برهة من الزمان ثم فترت عنى كتبه ثم انقطعت فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبتْ بى الظنونُ فى شانه كل مذهب إلا مذهباً واحداً وهو الشك فى صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرّف حاله قعد بى عن ذلك همّ كان يقعدنى عن كل شأن حتى شأن نفسى فلم أعد إلى مصر إلا بعد سبعة أعوام فكان أوّل همى يوم هبطتُ أرضها أن أراه فذهبت إلى منزله فى الساعة الأُولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبى حتى اليوم

تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة فى ألوانها المختلفة وتترقرق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ثم زرته اليوم فخيل الىّ انى أمام مقبرة مظلمة ساكنة لا يهتف فيها صوت ولا يتراءى فى جوانبها شخص ولا يلمع فى أرجائها مصباح فظننت أنى أخطأت المنزل الذى أريده أو أننى بين يدى منزل مهجور حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت فى بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقته فلم يجبنى أحد فطرقته أخرى فلمحت من خَصاصه [1]

---

(١) خصاص الباب خروقه

نوراً مضطربا ثم لم يلبث أن انفرج لى عن وجه غلام صغير فى أسمال بالية يحمل فى يده مصباحا ضئيلاً فتأملته على ضوء المصباح فرأيت فى وجهه صورة أبيهِ فعرفتُ أنهُ ذلك الطفل الجميل المدلّل الذى كان بالأمس زهرة هـذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إلىّ بالدخول ومشي أمامى بمصباحه حتى وصـل بى الى قاعة مغبرة شعثاء بالية المقاعد والأستار لولا نقوش أعرفها من قبل لاحتْ لى في بعض جدرانها كما فى الوشم فى ظاهر اليد ما عرفتُ أنهـا القاعة التى قضينا فيها ليالى السعادة والهناء اثنى عشر هلالاً ، ثم جرى بينى وبينه حـديث قصير عرّف فيهِ من أنا وعرفتُ منهُ أن أباه لم يعـد الى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عمّا قليل ، ثم تركنى ومضى وما لبث إلا قليلا حتى عاد يقول لى : إن والدته تريد أن تحدثنى حديثاً يتعلق بأبيـه ، فخفق قلبى خفقة الرعب والخوف وأحسست بشر لا أعرف مأتاه [1] ثم التفت فاذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب فحيّتنى فحييتها ثم قالت لى : هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعـدك ، قلت لا فهذا أوّل يوم هبطت فيهِ هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام ، قالت ليتك لم تفارقه فقد كنتَ عصمةً للرجل فيه وحمًى له من

---

(١) المأتى الوجه الذى يأتى منه الشيء

كل سوء فما هو إلا أن فارقتَه حتى أحاطت به زمرة من زُمر الشيطان وكان فتى كما تعلمهُ غريراً فما زالت تغريه بالشر وتزخرفهِ له حتى سقط فيه فسقطنا جميعاً فى هـذا الشقاء الذى تراه ، قلت وأى شر تريدين يا سيدتى ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟ قالت سأقص عليك كل شىء فاستمع لما أقول

ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه وعَلقتْ حباله بحباله وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه حيث كان ولا تزال نعالهم خافقة وراءه فى غدواته وروحاته فقد استحال من ذلك اليوم أمره وتنكرتْ صورةُ أخلاقه وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده لا يراهم الا في الفَيْنة بعـد الفَيْنة [1] وعن منزله لا يزوره الاّ فى أخريات الليال ، ولقد اغتبطت فى مبدأ الأمر بتلك الحظوة التى نالها عند ذلك الرجل والمنزلة التى نزلها من نفسه ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً مغتفرة فى سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عنى وإغفاله النظر فى شأن بيته وشؤون أولاده حتى عاد فى ليلة من الليالى شاكياً متألماً يكابد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً فدنوت منهُ فشممت من فمه رائحة الخمر فعلمت كل شىء

---

(١) الفينه الساعة والحين

علمت أن ذلك الرئيس العظيم الذى هو قدوة مرؤوسيه فى الخير ان سلك طريق الخير وفى الشر إن سلك طريق الشر قد قاد زوجى الفتى الضعيف المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين ، وأنهُ ما كان يتخذه صديقاً كما كنت أظن بل كان يتخذه نديماً ، فتوسلت اليه بكل عزيز عليهِ وسكبت بين يديهِ من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين رجاء أن يعود الى حياته الاولى التى كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجديتُ عليه شيئاً ، ثم علمت بعد ذلك أن اليد التى ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب فلم أعجب لذلك لأنى أعلم أن طريق الشر واحدة فمن وقف على رأسها لا بد له من أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها ، فاصبح ذلك الفتى النبيل الشريف الذى كان يعف بالأمس عن شرب الدواء اذا اشتم فيه رائحة الشراب، ويستحيي أن يجلس فى مجتمع يجلس فيه قوم شاربون ، سكيراً مقامراً مستهتراً فى الحالتين لا يتجمّل ولا يتستر ولا يتقى عاراً ولا مأثماً ، وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم الذى كان يضن بأولاده أن يَعلَق بهم الذرّ ، وبزوجته أن يتجهم [1] لها وجهُ السماء ، أباً قاسياً وزوجاً سَلِيطاً يضرب أولاده كلما دنوا منهُ ويشتم زوجته

(١) تجهم له استقبله بوجه كريه

وينتهرها كلما رآها ، وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالى أن يعود الى المنزل فى بعض الليالى فى جمع من عُشَرائِهِ الأَشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التى أنام فيها أنا وأولادى فيجلسون فى بعض غرفها ولا يزالون يشربون ويقصُفون[1] حتى يذهب بعقولهم الشراب فيهتاجون ويرقصون ويملأُون الجو صراخا وهتافاً ثم يتعادَوْن[2] بعضهم وراء بعض فى الأَبهاء[3] والحجرات حتّى يلجُوا على باب غرفتى وربما حدق بعضهم فى وجهى أو حاول نزع خمارى على مرأى منهُ ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً ، فأفر من بين أيديهم من مكان إلى مكان وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ولا خمار غير إزار الظلام وخماره حتى أصل الى بيت امرأة من جاراتى فأقضى عندها بقية الليل

وهنا تغيَّرتْ نغمة صوتها فأمسكت عن الحديث هُنيهة وأطرقت برأسها فعلمتُ أنها تبكى فبكيت لبكائها بينى وبين نفسى ثم رفعتْ رأسها وعادت إلى حديثها تقول

وما هى إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان فى يده من

---

(١) قصف الرجل أقام فى أكل وشرب ولهو
(٢) من العدو وهو الجرى
(٣) الأبهاء جمع بهو وهو البيت المقدم أمام البيوت

المال فكان لا بدّ له أن يستدين ففعل فأثقله الدين فرهن فعجز عن الوفاء فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذى نسكنهُ ولم يبقَ فى يدهِ غير راتبه الشهرى الصغير ، بل لم يبقَ فى يده شيء حتى راتبه لأنهُ لا يملكه إلا ساعة من نهار ثم هو بعد ذلك ملك الدائنين ، أو غنيمة المقامرين

هذا ما صنعتْ يد الدهر بهِ أما ما صنعت بى وبأولادى فقد مرَّ على آخر حليه بعتها من حلاى عام كامل وها هى حوانيت المرابين والمسترهِنين ملآى بملابسى وأدوات بنى وآنيته ولولا رجل من ذوى قرباى رقيقُ الحال[1] يعود عليَّ من حين الى حين بالنزر القليل مما يسئلهُ من أشداق عياله لهلكتُ وهلك أولادى جوعا

فلعلك تستطيع يا سيدى أن تكون عونا لى على هذا الرجل المسكين فتنقده من شقائهِ وبلائهِ بما ترى له فى ذلك من الرأى الصالح وأحسبُ أنك تقدر منهُ للمنزلة التى تنزلها من نفسهِ على ما عجز عنهُ الناس جميعا فانك إن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحسانا لا ننسى يدك فيهِ حتى الموت

ثم حيتنى ومضت لسبيلها فسألت الغلام عن الساعة التى أستطيع أن أرى أباه فيها فى المنزل فقال إنك تراه فى الصباح

(١) رقه الحال كناية عن الفقر

قبل ذهابه إلى الديوان فانصرفتُ لشأنى وقد أضمرتُ بين جنبيَّ لوعة ما زالت تقيمنى وتقعدنى وتذود عن عينيَّ سنة الكرى حتى انقضى الليل وما كاد ينقضى

ثم عدت فى صباح اليوم الثانى لأرى ذلك الصديق القديم الذى كنت بالأمس أسعد الناس بهِ ولا أعلم ما مصير أمرى معهُ غداً وفى نفسى من القلق والاضطراب ما يكون فى نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد راهن فيهِ بجميع ما يملك فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم

***

الآن عرفتُ أن الوجوه مَرايا [1] النفوس تضىء بضيائها وتظلم بظلامها ، فقد فارقت الرجل منذ سبع سنين فأنستنى الأيام صورتهُ ولم يبق فى ذاكرتى منها إلا ذلك الضياء اللامع ضياء الفضيلة والشرف الذى كان يتلألأ فوقها تلألؤ نور الشمس فوق صفحتها فلما رأيتهُ الآن ولم أرَ أمام عنى تلك الغُلالة البيضاء من الضياء خيل إلىَّ انى أرى صورة غير الصورة الماضية ورجلاً غير الذى أعرفهُ من قبل

لم أرَ أمامى ذلك الفتى الجميل الوضّاح الذى كان كل منبت

---

(١) المرايا جمع مرآة

شعرة فى وجهه فماً ضاحكاً تموج فيـهِ ابتسامة لامعة بل رأيت مكانه رجلاً شقيًّا منكوباً قد لبس الهَرَم قبل أوانه وأوفى على الستين قبل أن يسلُخ الثلاثين فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه وجمدَت نظراته وتهدَّل عارضاه وتجعَّد جبينه واستشرف[1] عاتقاهُ وهوَى رأسـهُ بينهما هُوِيَّةً بين عاتِقَى الأحدب فكان أول كلمة قلتُها له لقد تغيَّر فيك كل شىء يا صديقى حتى صورتك، وكأنما ألمَّ بما فى نفسى وعلم انى قد علمت من أمره كل شىء فأطرق برأسـه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير لهُ من ظاهرها ولم يقل شيئاً، فدنوت منهُ حتى وضعت يدى على عاتقهِ وقلت لهُ

والله ما أدرى ماذا أقول لك؟ أأعظك وقد كنت واعظى بالأمس ونجم هداى الذى أستنير بهِ فى ظلمات حياتى، أم أدلك على ما أوجب الله عليك فى نفسك وفى أهلك ولا أعرف شيئاً أنت تجهله، ولا تصل يدى الى عِبرة تقصر يدك عن نيلها، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التى لا عضد لها فى الحياة ولا معين سواك وأنت صاحب القلب الرحيم الذى طالما خفق رحمة بالبعداء، فأحرى أن يخفُق رحمة بالأقرباء إن هـذه الحياة التى تحياها يا سـيدى إنما يلجأ اليها الهمَل

(١) استشرف الشىء ارتفع

العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ليتواروْا فيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً حتى يأتيهم الموتُ فيخلصهم من عارهم وشقائهم وما أنت بواحد منهم

انك تمشي يا سيدى فى طريق القبر وما أنت بناقم على الدنيا ولا متبرّم بها[1] فما رغبتك فى الخروج منها خروج اليائس المنتحر؟

عذرتُك لو أن ما ربحت فى حياتك الثانية يقوم لديك مقام ما خسرت من حياتك الأُولى، ولكنك تعلم أنك كنت غنياً فأصبحت فقيرًا، وصحيحاً فأصبحت سقيماً، وشريفاً فأصبحت وضيعاً، فان كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد فقد خلَتْ رُقعة الأرض من الأشقياء

إِن كان كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموتَ فاطلبه فى جَرعة سم تشربها دفعة واحدة فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذى يكثر فيه عذابك وألمك، وتعظم فيهِ آثامك وجرائمك، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأُولى

حسبُنا يا صديقى من الشقاء فى هذه الحياة ما يأتينا بهِ القدر فلا نضمَّ اليهِ شقاءً جديداً نجلبهُ بأنفسنا لأنفسنا فهات يدك

---

(١) تبرم بالامر سئمه وضجر منه

وعاهدنى على أن تكون لى منذ اليوم كما كنت لى بالأمس فقد كنّا سعداء قبل أن نفترق ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن قد التقينا فلنعش فى ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنّا

ثم مددت يدى إليه فراعنى أنهُ لم يحرّك يده فقلت له مالك لا تمد يدك إليّ ، فاستعبر باكياً وقال لأنى لا أحب أن أكون كاذباً ولا خائنا ، قلت وما يمنعك من الوفاء ، قال يمنعنى منهُ انى رجل شقى لا حظ لى فى سعادة السعداء ، قلت قد استطعت بالأمس أن تكون سقياً فلِمَ لا تستطيع اليوم أن تكون سعيداً ، قال لأن السعادة سماء والشقاء أرض والهبوط إلى الأرض أسهل من الصعود الى السماء ، وقد زلّتْ قدمي عن رأس الهوة فلا حيلة لى فى الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربتُ أول جرعة من جرعات كأس الحياة المريرة فلا بد لى أن أشربها حتى ثمالتها ، ولا شيء تقف فى سبيلى إلا شيء واحد فقط ، وهو أن لا أكون قد شربتُ الكأس الأُولى قبل اليوم ، قلت ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين ، قال إن العزيمة أثر من آثار الإرادة وقد أصبحتُ رجلاً مغلوبا على أمرى لا إرادة لى ولا اختيار ، فدعنى ياصديقى والقضاء يصنع بى ما يشاء وابكِ على صديقك القديم منذ اليوم

ان كنت لا ترى بأساً فى البكاء على الساقطين المذنبين

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركنى فى مكانى دون أن يحيينى بكلمة واحدة وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأنى وبين جنبيّ من الهم والكمد ما الله به عليم

* * *

لم يستطع رئيس الديوان أن يجامل نديمه بالأمس زمناً طويلاً فأقصاه عن مجلسه استثقالاً لهُ ، ثم عزله من وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تذرف عينهُ دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه مالكه القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منهُ فلجأ هو وزوجته وولداه إلى غرفة حقيرة فى بيت قديم فى زقاق مهجور فأصبحتُ لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً الى الحانة أو عائداً منها ، فان رأيته ذاهباً توارى عن عينى حياءً وخجلاً وان رأيتهُ عائداً دنوت منهُ فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ثم قدتهُ إلى بيته

وهكذا ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلماً من الأحلام السارية ، يمشى فى طريقه مشية الذاهل المشدوه

لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه حول نفسه كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلّب نظره في أثوابه وما في أثوابه غير الخروق والرقاع ، وينظر الى كل وجه يقابله نظرةً شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق ، وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقهِ فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبهٍ ولا محتفل كما يدفع النائم المستغرِقُ عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سوْرتها في رأسه انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزيّد حتى يعود إلى ما كان عليه

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية :

***

عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها تنطق دموعهما بما يصمت عنهُ لسانهما فلم ترَ لها بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها وبقيتانها فكانت لا تراهما بعد ذلك إلاَّ قليلاً ولا ترى زوجها إلاّ في الليلة التي تغفل عنهُ فيها عيون الشرطة وقلما تغفل عنهُ ،

فأصبحتْ وحيدة فى غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز تختلف اليها من حين إلى حين فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ذكرت تلك الأيام السعيدة التى كانت تتقلب فيها فى أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة بين زوج محب كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وضياءً ثم تذكر كيف أصبح السيد مسوداً والمخدوم خادماً والعزيز الكريم ذليلاً مهاناً وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤى المنظوم الذى كان حلية بديعة فى جيد الدهر ثم استحال بعد انتثاره إلى حَصَيَات ملقيات على سطح الغبراء تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام فتبكى بكاء الواله فى إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد ، على أنها ما أضمرت قط فى قلبها حقداً لذلك الإنسان الذى كان سبباً فى شقائها وشقاء ولديها ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو مفارقته لأنها امرأة شريفة والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب ، بل كانت تنظر اليه نظر الأم الحنون إلى طفلها الصغير فترحمه وتعطف عليه وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً ، وربما طرده الخمار فى بعض لياليه من حانته إن لم يجد معه ثمن الشراب فيعود إلى بيته هائجاً ثائراً يطلب الشراب طلباً شديداً فلا تجد لها بدًّا من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر

ما تَسكن به نفسهُ رحمة بهِ وابقاء على تلك البقية الباقية من عقله

وكأنَّ الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الاثقال حتى أضاف اليها ثقلاً جديداً فقد شعرت فى يوم من أيامها بنسمة تحرك فى أحشائها فعلمت أنها حامل وأنها ستأتى إلى دار الشقاء بشقي جديد فهتفت صارخة : رحماك اللهم فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرةً واحدة ، وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة حتى جاءت ساعة وضعها فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز فأعانها الله على أمرها فوضعت ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها لأن البلد الذى لا يستحيي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم القاتل لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله فوافاها أجلها فى ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها

فى هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتى له منه بما يريد فدار بعينيه فى انحاء الغرفة حتى رآها ممددة على حصيرها ورأى ابنتها تبكى بجانبها فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها وأخذ يحركها تحريكاً

شـديداً فلم يشعر بحركة فرابهُ الأمرُ وأحس برعـدة تمشى فى أعضائه حتى ملأت قلبه وبدأ صوابه يعود اليه شيئاً فشيئاً فأكب عليها يحـدق فى وجهها تحديقاً شـديداً ويدنو منها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت ينظر اليهِ بعينيها الشاخصتين الجامدتين فتراجع خوفاً وذعراً فوطئ فى تراجعه صـدر ابنته فأنّت أنةً مؤلمة لم تحرّك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال وا شقاآه وخرج هائماً على وجهه يعدو فى الطرق ويضرب رأسه بالعَمَد والجدران ويدفع كل ما يجـد فى طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح ابنتى ! زوجتى ! هلموا إلىّ ! أدركونى ! حتى أعيا فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليهِ ويئن أنين الذبيح والنـاس من حوله يبكونه لا لأنهم يعرفونه بل لأَنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه

كذلك كانت تلك اللحظة القصيرة التى استفاق فيهـا من ذهوله الطويل سبباً فى ضياع ما بقى من عقله

وما هى إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً فى قاعـة من قاعات البيمارستان ، فوا رحمتاه له ولزوجتـه الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأَولاده المشردين البؤساء ، ووا أسفا عليه وعليهم جميعاً حتى الموت

الجـزاء

« مترجمة »

جَلَسَتْ على صنفة البحيرة لتملأ جرتها وكان الماء ساكناً هادئاً كأنما قد امتدت فوق سطحها طبقة لامعة من الجليد فعزَّ عليها أن تكسر بيدها هذه المرآة الناعمة الصقيلة ولا أحبّ إلى المرأة من المرآة فظلت تقلب نظرها فيها فلمحت فى صفحتها وجهاً أبيض رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً فابتسمتْ له فابتسم لها فعلمت أنه الوجه الذى افتتن بهِ خطيبها القروى الجميل

أنِستْ بهـذا المنظر ساعة ثم راعها أن رأت بجانب خيالها فى الماء خيالاً آخر فتبينَتْه فإذا هو خيالُ رجلٍ فذُعرتْ ولكنها لم تلتفت ومدت يدها إلى المـاء فملأتْ جرتها ثم نهضت لتحملها فتقـدم إليها ذلك الواقف وراءها وقال لهـا: هل تأذنين لى يا سيدتى أن أعينك على حمـل جرتك ، فالتفتت إليه فإذا فتًى حضرىّ غريب حسن الصورة والبِزَّة لا تعرفه ولا تعرف أن

هذه الأرض مما تبت مثله فرابها أمره واتّقد وجهها حياء وخجلاً ولم تعل شيئاً واستقلت جرّتها ومضت فى سبيلها

***

نشأت سوزان وابن عمها ادبرت فى بيت واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان فى مغرِس واحد فرضعتْ معه وليدة ، لعبتْ معهُ طفلة وأحبتهُ فتاة ومرت بهما فى جميع تلك الأدوار سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين ، والأرائك والأسره ، والمركبات والجياد ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة ، والغلائل المرصعة ، لأنهما كانا قرويين فقيرين ، بل من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلألؤ السماء بنجومها الزاهرة ، والأرض بأعشابها الناضرة ، ووقفاتٍ فوق الصخور المائلة ، على ضفاف البحيرة الهادئة ، وجلساتٍ على الأعشاب الناعمة ، تحت ظلال الأشجار الوارفة ، وسماعِ أناشيد الحداة ، وأغانى الرعاة ، وضوضاء السائمة فى غدوها ورواحها ، وبكاء النواعير (١) فى مسائها وصباحها ، بل من الحب الطاهر الشريف الذى يشرق على القلوب الحزينة فيسعدها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ،

(١) النواعير جمع ناعورة وهي الدولاب المعد لاستخراج الما من البئر (الساقية)

والأجنحة الكسيرة فيَريشُها ، والذى هو العزاء الوحيد عن كل فائت فى هذه الحياة والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنها وشأنه حتى كان يوم البحيرة

***

لا تعرف المرأة لها وجوداً إلا فى عيون الرجال وقلوبهم ، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ، لأصبح الوجود والعدم فى نظرها سواء ، ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لمحتْ فى كوكب من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعتْ فى زاوية من زوايا الأرض أنّة وجد ، لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملأ قلبها غِبطة وسروراً

فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهوّة مختالة لا لأن حباً جديداً حل فى قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت فى طريقها برهاناً جديداً على جمالها فأعجبها ، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بجرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة فترى ذلك السيد الحضرى فى غدوها أو فى رواحها يحييها أو يبتسم لها ، أو يسائلها عن طريق ، أو يستسقيها جرعة ماء ، أو يقدم اليها زهرة جميلة ، أو يلقى فى أذنها كلمة عذبة ، حتى

استطاع فى يوم من الأَيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة فى ظل صخرة منفردة فكانت هذه اللحظة آخرَ عهدها بحياتها القديمة ، وأول عهدها بحياتها الجديدة

***

هبط المركيز جوستاف روستان هذه الأَرضَ منذ أيام لنفقد مزارعه فيها وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين فيقضى فى قصره الجميل الذى بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ثم يعود إلى بلدته « نيس » حتى رأى هذه المرة هذه الفتاةَ فى بعض غدواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها وما زال بها يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سحره ، وعلى جيدها ومِعصميها من لآلئه وجواهره ، ويصور لها جمال الحياه الحضريه فى أجمل صورها وأبهاها ، ويمنيها الأمانى الكبار فى حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنت واستقادت وخضعت للتى تَخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيها وأسلمها حظُّها الى أنياب الذئاب

***

استيقظ الفتى جلبرت فى الساعة التى يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمَد إلى بقرته فحل عقالها ثم هتف باسم سوزان يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه فصعِد إلى غرفتها

فى سطح المنزل ليوقظها فلم يجدها فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم فظن أنها خرجت لبعض شأنها ثم تعود فلبث ينتظرها وقتاً طويلاً فلم تعد فرابه الأمر وأعاد البقرة إلى معتلَفها وخرج يفتش عنها فى كل مكان ويسائل عنها الناس جميعاً غاديَهم ورائحَهم فلم يجد من يدله عليها حتى أظله الليل فعاد حزيناً مكتئباً لا يرى أن أحداً على وجه الأرض أعظم لوعة منه ولا أشقى ، فرأى أمه قابعة فى كسر البيت مطرقة برأسها إلى الأرض تَفلى التراب بعود فى يدها فدنا منها فرفعت رأسها إليهِ وقالت له : أين كنت يا جلبرت ، قال فتشت عن سوزان فى كل مكان فلم أجدها ، فألقت عليهِ نظرةً مملوءة حزناً ودموعا وقالت له :خيرٌ لك يا بنىَّ ألاَّ تنتظرها بعد اليوم ، فانتفض انتفاضة شديدة وقال لماذا ؟ فالت قد دخلَتْ علىَّ الساعةَ جارتُنا فلانة فحدثتنى أنها ما زالت تراها منذ ليال تختلف إلى البحيرة للاجتماع على ضفافها بفتى حضرى غريب عن هذه المدَرة أحسَبه المركيز جوستاف روستان صاحبَ هذه المزارع التى تلينا والقصرِ الأحمر الذى يليها وقالت أنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة وراءه على فرس أشهب يعدو بهما فى طريق القصر الأحمر عدواً شديداً ولا بد أنها فرَّت معه ، فصرخ جلبرت صرخة عظيمة جاءت لها

نفسه أو كادت وخرّ في مكانه صعِقاً ، فلم تزل أمه جاثية بجانبه الليل كله تبكي عليه مرة وتمسح جبينه بالماء أخرى حتى استفاق في مطلع الفجر فنظر حوله نظرة حائرة فرأى أمه مُكِبّة على وجهها تبكي وتنتحب فذكر كل شيء فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه ووضع يده على عاتقها وسألها ما يبكيك يا أماه ؟ قالت أبكي عليك يا بني وعليها. قال إن كنت باكية فابكِ على غيري ، أما أنا فلست بحزين ولا باكٍ على ما فاتني ، فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد استحال قلبها فاستحال قلبي ، فلا رجعة لي إليها بعد اليوم ، ثم مسح عن خده آخر دمعة كانت تنحدر فيه وقام إلى بقرته فأخذ بزمامها ومضى بها إلى المزرعة وحده

*
* *

لقد كذبَتِ المسكينَ نفسُه فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ولكنها الغضْبة التي يغضبها المحب المهجور تُخيل إليهِ أنهُ قد نفض يده من الحُب أشدَّ ما يكون بهِ عالقاً ، فإنه ما وصل إلى المزرعة وأرسل سائمته في مرعاها حتى رأى كوكب الشمس يتناهض من مطلعه قليلاً قليلاً ويرسل أشعته الياقوتية الحمراء على هذه الكائنات فتنير ظلامها ، وتجلو صفحتها ، وتترقرق ما بين خضرائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة

المتلألئة أمام هـذا الكوكب المنـير ودار بنظره فى الفضاء من مشرقه إلى مغربه فلمح فى الأفق الغربى بارقاً يخطف البصر بلألائه نخيل إليه أن المغرب قد أطلع فى أُفقه شمساً كتلك التى أطلعها المشرقُ حتى تبينه فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تُعابثه أشعة الشمس فيما تُعابث من الكائنات فيلتمع التماعاً شـديداً فاسترد بصره اليه سريعاً ووضع يده على يسرى أضالعه كأنما يحول بين قلبه و بين الفرار لأنهُ علم أن ذلك البارق الأصفر إنما يلوح فى برج من أبراج القصر الأحمر

هنا علم أن نفسه قد كذبته فيما حدثته وأن تلك البارقة التى كانت تضىء ما بين جنبيه من الحب قد استحالت إلى جذوة نار مشتعلة تقضم فؤاده قضما وتمشى فى نفسه مشى الموت فى الحياة فأطلق لعبرته سبيلها وأنشأ يئن أنيناً محزناً تردده الرياح فى جوها ، والأمواج فى بحرها ، والأعشاب فى مغارسها ، والسائمة فى مرابضها ، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة تدنو منه فكفكف عبرته وأسلم رأسه إلى ركبتيه وذهب مع همومه وأحزانه إلى حيث شاء الله أن يذهب

وهكذا لم ينتفع المسكين بنفسه بعد اليوم فقد ذهب مع الحزن إلى أبعد مذاهبه حتى نال منهُ ما لم ينل كرُّ الغداة ومرُّ

المشى ، فأصبح من يراه يرى رجلاً يائساً منكوباً مشرّد العقل ، مشترَك اللب ، مذهوباً بهِ كل مذهب ، يهيم على وجهه آناء الليل وأطراف النهار بين الغابات والحَرَجات ، وفوق ضفاف الأنهار ، وتحت مشارف الجبال ، يأنس بالوحش أنس العشير بعشيره ، ويفر من الناس إن دنوا منه فِرار الإنسان من الوحش ، ويرد المناهل مع الظباء واليعافير[1] ثم يصدُر إذا صدَرَت معها ، وربما ترامى بهِ السير أحياناً إلى أفنية القصر الأحمر من حيث لا يشعر فإذا رأى أبراجه بين يديه ذُعر ذعراً شديداً كأن بارقة من بوارق الصواب تلمع فى تلك الساعة فى رأسه وصاح صيحة عظيمة وانكفأ راجعاً إلى قريته لا يلوى على شيء ، وكثيراً ما قضت أمه اليوم كلهُ حاملة على يدها الطعام تفتش عنهُ فى كل مكان حتى تراه ملقى بين الأحجار على ضفة نهر أو فى سفح جبل فتضع الطعام بين يديهِ من حيث لا يشعر بمكانها ثم ترفع يديها إلى السماء ضارعة متخشّعة تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد اليها وحيدها ثم تعود أدراجها

***

مضى الليل إلا أقلّهُ وسوزان جالسةٌ إلى نافذة قصرها المشرفة

---

(١) اليعافير جمع يعفور وهو الظبي بلون التراب

على النهر ملتفت إلى سرير ابنتها مرّة وتقلّب وجهها في السماء أُخرى وكان القمر في ليلة تمه فظلت تناجيهِ وتقول

أيها القمر السارى في كبد السماء هأنذا أراك في ليلة تمامك وحدى للمرّة الرابعة والعشرين فهل يعود إلىّ خطيبي جوستاف فيراك معى كما كان يفعل من قبل ؟

لقد كنت لى أيها الكوكب المنير نعمَ المعينُ في ليالىّ الموحشة على همومى وأحزانى فهل تستطيع أن تحدّثنى عن جوستاف أين مكانهُ ومتى يعود وهل نلتقى فنَتِمَّ بذلك يدُك عندى ؟

حدّثنى عنهُ هل يذكرنى كما أذكره وهل يحفظ عهدى كما أحفظ عهده وهل يجلس إليك حيناً فيسائلك عنى كما أُسائلك عنهُ ، فإن فعل فقل لهُ إن ابنته جميلة جداً جمال الابتسامة الحائرة في فم الحسناء ، وبيضاء بياضَ القطرة الصافية ، فوق الزنبقة الناصعة ، تحت الأشعة الساطعة ، وقل له إنها لا تهتف باسم غير اسمه ، ولا تبتسم لرسم غير رسمه ، وإنهُ ان رآها أغنتهُ رؤيتها عن المِرآة المجلوّة لأنهُ يرى صورته في وجهها كما تتشابه الدُميتان المصبوبتان في قالَب واحد

ولم تزل تناجى القمر بمثل هذا النَّجاء حتى رأَتهُ ينحدر إلى مغربه فودعته وداعاً جميلاً وقالت : الى الغد يارفيقى العزيز ، ثم قامت

إلى سرير ابنتها فحنت عليها برفق وقبلتها فى جبينها قبلة المساء وذهبت إلى مضجعها ، وما هو إلاَّ أن عبثت بجفنها السِنَة الأولى من النوم حتى أسلمتْها أحلامُها إلى أمانيها وآمالها فرأت كأن جوستاف قد عاد من سفره فاستقبلتْهُ هى وابنتها على باب القصر فنزل من مركبتهِ وضمهما معاً إلى صدره ضماً شديداً وظلَّ يقبلهما ويبكى فرحاً وسروراً

فانها لمستغرقة فى حلُمها هذا إذ شعرتْ بيد تحركها فانتبهت فإذا صدرُ النهار قد علا وإذا خادمتُها واقفةٌ على رأسها ضاحكةً متطلِّقةً تقول لها : بشراك ياسيدتى فقد حضر سيدى ، فاستُطيرت فرحاً وسروراً وقالت : أحمدك اللهمَّ فقد صدَقتْ أحلامى ، وأسرعت إلى غرفة ملابسها فبدلت أثوابها ثم دخلت عليهِ فى غرفتهِ باسمة متهللة تحمل ابنتها على يدها فرأته واقفاً فى وسط الغرفة متكئاً على كرسى بين يديه فهرعت اليه ولكنها ما دنت منهُ حتى تراجعت حائرة مشدوهة لأنها رأت أمامها رجلاً لاتعرفهُ ولا عهد لها بهِ من قبل ؛ بل هو بعينهِ ولكنها رأت وجهاً صامتاً متحجراً لاتلمع فيهِ بارقة ابتسام ولا تجرى فيهِ قطرة بشاشة فأنكرتْهُ الاَّ أنها تماسكت قليلاً ومدت اليهِ يدها تحييه فمد اليها يده بتثاقل وفتور كأنما ينقلها من مكانها نقلاً ولم يُلق

على وجـه الطفلة وكانت تبتسم اليـهِ وتمد نحوه ذراعيها نظرةً واحدة ، وكانت أول كلمة قالهـا لهـا : أباقيةٌ أنت فى القصر حتى اليوم ؟ فازدادت دهشة وحيرة ولم تفهم ماذا يريد وقالت له : وأين كنت تريد أن ترانى ياسيدى ، قال فى هـذا القصر كما تركتُكِ ولـكنى أظن أنك لاتستطيعين البقاء فيهِ بعـد اليوم ، قالت ولماذا ؟ قال لأن زوجتى قادمة اليهِ اليوم وربما كانت لاتحب أن ترى فيهِ من يزعجه وجودها

هنالك شَعرت أن جميع ما كان ينبعث فى عروقها من الدم قد تراجع كله دفعة واحدة الى قلبها فأصبح وحده الواجبَ [1] الخفَّاقَ من دون أعضائها وأوصالهـا جميعاً ، ولـكن المصيبة اذا عظمت جلّتْ عن البكاء والأنين فلم تصحْ ولم تضطرب بل نظرت اليـهِ نظرة طويلة هادئة ثم التفتت الى ابنتها وقالت له : وماذا ترى فى ابنتك هذه ، قال ليس لى ابنة أيتها الفتاه ولا ولد لأنى لم أتزوج إلاّ منذ ثلاثه أيام فخذى ابنتك معك وعيشى معها حيث تشائين ، وقد تركتُ لك هـذا المال على هـذه المِنضدة فخذيه واستعينى بهِ على عيشك وتركها ومضى ، فلم تُلق على المِنضدة نظرةً واحدة ومشت تتحامل على نفسها حتى وصلت الى غرفتها ، وهنالك انفجرت باكية

---

(١) وجب القلب خفق

وقالت : واسوأتاه انه يعطيني ثمن عرضي . وسقطت مغشياً عليها ، فلم تستفق حتى أظلها الليلُ ففتحت عينيها فاذا ابنتُها تبكي بين ذراعي الخادمة واذا الخادمةُ تبكي لبكائها فضمتها إلى صدرها ساعة ثم قامت الى غرفة ملابسها وأخذت تفتش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر منذ ثلاثة أعوام وكانت تخفيها عن أعين الناس حياءً وخجلا فخلعت أثوابها ولبستها ولم تُبق في معصمها ولا في جيدها لؤلؤة ولا جوهرة إلاّ ألقتها تحت أقدامها واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترنح في مِشيتها كأنما تمشي على رملة مَيْثاء [1]

وما تجاوزت عتبةَ الباب ووصلت الى الموضع الذي كانت واقفة فيه ِ في حُلُمها هي وابنتها منذ ساعات تنتظر خطيبها حتى لمحت على البعد مركبة فخمة مقبلة على القصر تحمل المركيز وامرأة شابة فأغمضت عينيها وتسلّلت تحت جدار القصر ومضت في سبيلها .

* * *

لا يعلم إلاّ الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبيها في تلك الساعة من هموم وأحزان فقد خرجت مطرودة من القصر الذي كانت تظن نفسها منذ ساعات صاحبته ، وتولى طردها

---

(١) الميثاء اللينة

من كانت تزعم فى نفسها انها أحب الناس اليهِ وآثرهم عنده ، واستحالت فى ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف الى امرأة عاهر ذات ولد مريب ، وأصبح مستحيلاً عليها أن تعود الى بيتها الأول بعارها فترى وجه ذينك الشخصين اللذين أحسنا اليها كثيراً وأحبّاها حباً جمّاً فأساءت اليهما وغدرت بهما ، فقد سُدت دونها السبل وأظلم ما بينها وبين الوجود بأجمعه فما من رحمة لها فى الأرض ولا فى السماء

ذلك ما كانت تحدث نفسها بهِ وهى سائرة تحت جدار القصر سير الذاهل المشدوه لا تعرف لها مذهباً ولا مضطرَباً حتى رأت رأس ابنتها يميل بهِ الكرى فمشت الى رَبوة مخضرة على ضفة النهر الجارى بجوار القصر فأضجعَتها فوق عشبها وأسبلت عليها رداءها وجلست بجانبها تنتظر قضاء الله فيها

فانها لجالسة مجلسها هذا وقد سكن الليلُ وسكن كل شىء فيهِ إلاّ ضوء القمر المترقرق فى أجواز الفضاء ، ونسمات الهواء المتبسّطة على صفحات الماء ، اذ شعرَت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفاً يهتف باسمها بصوت ضعيف فالتفتت حيث سمعت الصوت فاذا شبحٌ أسودُ ممتد بين حجرين على ضفة النهر كأنهُ إنسان نائم فارتاعت وفزعت ثم سمعت الصوت يتكرَّر بنغمة واحدة

فأهمها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويداً رويداً حتى دانته فاذا هو إنسان فى زى المساكين مستاق على ظهره شاخصٌ ببصره الى حائط القصر فذهبتْ بنظرها حيث يذهب فاذا عينهُ عالقةٌ بنافذتها التى كانت تجلس اليها كل ليلة فعجبت لذلك كل العجب وخفق قلبها خفقاً متداركاً ورأتهُ يضم الى صدره هِنَة بيضاء أشبه بالرقعة ضماً شديداً فاكبّت عليه لتتبينهُ وترى مايضم الى صدره فاذا الرقعةُ رسمها واذا هو جلبرت يجود بنفسه ويردد بصوت خافت متغلغل كأنهُ أصوات المعذبين فى أعماق القبور : الوداع ياسوزان ، الوداع ياسوزان ، فعلمتْ كل شيء فصرخت صرخة عظيمة دوّى بها الفضاء وقالت : آه لقد قتلتُك ياجابرت ، ثم سقطت على يده تقبلها وتبللها بدموعها وتقول : هأنذا ياجلبرت جاثيـة تحت قدميك فارحمنى واغفر لى ذنبى فقد أصبحتُ امرأة بائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أحق بالرحمة منى ، وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتمد قليلاً ثم مال بنظره اليها شيئاً فشيئاً حتى رآها فسقطت من جفنه دمعة حارة على يدها كانت هى آخر عهده بالحياة وقضى

ولما دنا منى السّياق[1] تعرضت الىّ ودونى من تعرضها شغل

---

(١) السياق نزع الروح

أتت وحياض الموت بيني وبينهـا

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

***

جثت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة قضت فيها مايجب عليها لابن عمها وخطيبها وعشـيرها الذى أحبها حبًّا لم يحبه أحـدٌ من قبل أحداً حتى مات حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابنتها وأنهـا تركتها على تلك الربوة نائمة وحـدها فعادت اليهـا مسرعة وقد قررت فى نفسها أمراً

***

لا أعرف أحداً من الناس أوصيه بك يابُنية لأن أباك أنكرك ولأن الرجل الوحيد الذى كان يحبنى فى هـذا العالم قد مات ولكنى أعلم أن لهذا الكون إلهاً رحيماً يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ويرى لوعة الحزن فى أفئدة المحزونين ، ولاعج الشقاء بين جوانح الأشقياء ، فأنا أكل أمرك اليه وأتركك بين يديهِ فهو أرحم بك من جميع الرحماء

لا أستطيع أن أعيش لك يابُنية فان الناس لايغفرون لى الذنب الذى أذنبتهُ حتى الذى أغرانى بهِ وشاركنى فيهِ ، فأناذاهبة الى ذلك العالم العلوى المملوء عدلاً ورحمة عانى أجد فيهِ من يغفر

لى ذنبي ان كنت بريئة ، ويرحمني ان كنت مذنبة

لا أُحِب أن تكون حياتى يا بُنية شؤماً على حياتك ، ولا أن يأخذك الناس بذنبي كلما رأوك بجانبي ، فأنا أتركك وحدك فى هذا المكان لعل راحماً من الناس يمر بك فيعطف عليك ويضمك اليهِ من حيث لا يعلم شيئاً من أمرك فتعيشين فى بيته سعيدة هانئة لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ، ولا أمك فتؤلمك ذكراها

اللهمَّ ان كنت تعلم ان هذه الطفلة ضعيفة عاجزة تحتاج الى من يرحمها ويكفُل أمرها ، واننى قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرعاها وأحنو عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا يدَ لها فى الذنب الذى أذنبه أبواها ، فارحمها وأسبل عليها ستر معروفك واحسانك وهيئ لها صدراً حنوناً ، ومهداً ليناً ، وعيشاً رغداً ،

ثم بدأت تَنْزِع ثيابَها عن جسمها وتغطى بها جسم ابنتها وقاية لها من برد الليل حتى لم يبق على جسدها إلاّ قميص واحد تركته ليكون ستراً لعورتها عند انتشال جثتها ، ثم حنت على الطفلة برفق فلثمتْها فى جبينها لثمة أودعَتْها كل مافى صدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ثم هتفت قائلة : الوداع ياماری ، سنلتقى ياجلبرت ، المغفرة يا كاترين ، وألقت بنفسها فى الماء

***

قضى المركيز الليلة الأولى من ليالى شهر العسل مع عروسه فى شرفة القصر يسمُران ويتناجيان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد زرقة السماء وتطّرد مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوّة ، ويرشُفان من كل كأس من كؤوس اللهو رشفة تكثُّراً بما عندهما منها حتى ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما فلم يستفيقا حتى سمعا دوى الريح وضوضاءها فى أبراج القصر وفى أعالى الأشجار فعلما أنها الزوبعةُ فنهضا من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما

فانهما لواقفان موقفهما هذا اذ لمحت المركيزة فى وجه المركيز دهشة واضطرابا ورأته يلتفت التفاتاً شديداً كأنما يتسمّع لصوت غريب فسألته مابأله فلم يجبها وأطلّ من الشرفة على النهر فرأى كما رأت هى على نور القمر طفلة صغيرة واقفة على الضفة تصيح وتُعْوِل وتشير بيديها نحو الماء وتقول : أماه ! أماه ! فنظرا حيث تشير فاذا امرأة عاريةٌ أو مُوشكةٌ تخبط فى لجج الماء تخبط الغرقى فترك المركيز مكانه ونزل يعدو الى النهر وهو يقول والهفتاه ان كانت هى وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابنته وان الغريقة سوزان فاظلم الفضاء في عينيه وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر وأمر الباقين أن يسبحوا

وراء الغريقة ثم سقط فى مكانه واهناً متهالكاً ، وكان قد اجتمع على الضفة خلق كثير من الفلاحين رجالا ونساء فسبح بعضهم وراء السابحين ووقف الباقون حول المركيز ينتظرون رحمة الله واحسانه

انتشر السابحون فى كل مكان ومشت وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة كانوا يظفرون فيها مرة ويتراجعون أخرى ، وكانوا اذا لاح لهم على البعد قميص الغريقة أو شعرها عظم عندهم الأمل فاندفعوا وراءها مستبسلين مستقتلين مغالبين أجبال الأمواج المتوثبة فى وجوههم حتى اذا دنوا من المكان الذى رأوها فيه لايجدون أمامهم شيئاً ، ثم لا يلبث الموج أن يكر عليهم فيدفعهم إلى الضفة كما كانوا

وما زالت الفترات بين ظهور الغريقة واختفائها تتسع شيئاً فشيئاً حتى غابت عن الأعين ولم تظهر فهبط السابحون وراءها ولبثوا ساعة فى قاع النهر ثم ظهروا على وجه الماء يحملونها على أيديهم ولا يعلم الناس أحية هى أم ميتة وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والبكاء عليها ترنّ فى الضفتين فتردد رنينها آفاقُ السماء حتى وصلوا بها إلى الضفة فألقوها فاذا هى ميتة

وما هى الاّ ساعـة حتى كانت الضفة مأتماً قائماً يبكى فيـه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد

***

لم ينتفع المركيز بنفسه بعد اليوم كما لم ينتفع جلبرت بنفسه من قبل ، فقد مرضت ابنته على أثر تلك الحادثة مرضاً شـديداً فلم تلبث أن لحقت بأمها بعـد ثلاثة أيام ، واستحال الحب الذى كانت تضمره له زوجته فى نفسها الى بغض واحتقار فهجرته وسافرت الى « نيس » ، ولزمه خيال ذلك المنظر الذى رآه من شرفة القصر ليلة الغرق لايفارقه ليله ونهاره فكان كلما مشى فى طريق توهم ان أمامه نهراً مائجاً تتخبط سوزان فى لجته ، وتصيح مارى على ضفته ، فيصرخ قائلا : لبيكِ ياسوزان ، ويندفع الى الأمام كأنمـا يريد أن يلقى بنفسه فى النهر الذى توهمه لينجى الغريقـة التى تخيّلها فينآى عنه المنظر كلما دنا منهُ حتى ينال منـه التعب فيسقط معيي حسيراً ، وكان يهيم على وجهه أحياناً حتى يصل إلى ضاحيـة قرية « لينى » فيرى امرأة عجوزاً مُـكبّة على قبر بين يديهـا تبكى وتنتحب فيعلم أنها كاترين وان القـبر قبر قتلاه فيتراجع خائفاً مذعوراً ويصرخ قائلا : الرحمة الرحمـة ! العفو العفو ! ، وكثيراً ما كان يراه نساء الفـلاحين ساقطاً فى بعض

الأماكن التى كنّ يرين فيها جلبرت فيقلن : لقد انتقم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة ، وكان منظر الماء يهيجه أكثر من كل منظر سواه فاذا رآه ثار واضطرب وتهافت عليه يريد اقتحامه لولا أن يتداركه من يراه

ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته فى صباح يوم من الأيام طافية على وجه النهر فى المكان الذى غرقت فيه سوزان فعلموا أنها نهاية الجزاء

* * *

مرّ على هذه الحادثة خمسون عاماً ولا يزال عجائز قرية « لينى » والقرى المحيطة بها يحفظنها حتى اليوم ويبكين كلما ذكرنها ويروينها لبناتهن وحفيداتهن عبرة يعتبرن بها كلما طاف بهن طائف من شرور الرجال

العقاب

« موضوعة [1] »

رأيتُ فيما يرى النائم فى ليلة من ليالى الصيف الماضى كأنى هبطت مدينة كبرى لا علم لى باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذى هى فيه فمشيتُ فى طرقها بضع ساعات فرأيت أجناساً من البشر لا عِداد لهم ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها فخُيّل الىّ ان الدنيا قد استحالت الى مدينة وان الذى أراه بين يدىّ العالَمُ بأجمعه من أدناه الى أقصاه فلم أزل أنتقل من مكان الى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بى المسير إلى بِنية عظيمة لم أرَ بين البِنَى أعظم منها سأناً ولا أهْوَل منظراً وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ومشى فى أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطِرون بسيوفهم وحمائلهم جَيْئةً وذُهوباً فسألتُ بعض الواقفين ماهذه البِنيةُ وما

(١) وضعت هذه القصة على نسق قصة أمريكية اسمها صراخ القبور

هذا الجمع المحتشد على بابها فعلمت انها قصر الأمير وان اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل فى خصوماتهم ، وما هى إلاّ ساعة حتى نادى منادٍ فى الناس أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم وجلست حيث انتهى بى المجلس فرأيت الأمير جالساً على كرسى من ذهب يتلألأ فى وسط الفناء تلألؤ الشمس فى دارتها وقد جلس على يمينه رجل يلبس مُسوحاً [1] وعلى يساره آخر يلبس طيلساناً فسألتُ عنهما فعرفت ان الذى على يمينه كاهن الدير والذى على يساره قاضى المدينة ورأيتهُ ينظر فى ورقة بيضاء بين يديه فأكبَّ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : ليؤتَ بالمجرمين ، ففُتح باب السجن وكان على يسار الفِناء فتَكشف عن مثل حلق الليث منظراً وزئيراً وخرج منهُ الأعوان يقتادون شيخاً هرِماً تكاد تُسلمهُ قوائمهُ ضعفاً ووهْناً فسأل الأمير ماجريتهُ فقال الكاهن انهُ لص دخل الدير فسرق منهُ غِرارة [2] من غرائر الدقيق المخصصة للفقراء والمساكين ، فضج الناس ضجيجاً عالياً وصاحوا ويل للمجرم الأثيم أيسرق مال الله فى بيت الله ، ثم نودى بالشهود فشهد عليه رهبان الدير فتسارَّ الامير مع

---

(١) المسوح جمع مسح بالكسر وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان

(٢) الغرارة الجوالق

الكاهن برهة ثم قال يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه ثم يقطع رأسه ويترك طعاماً للطير الغادى والوحش الساغب ، فجثا الشيخ بين يدى الأمير ومدّ اليه يده الضعيفة المرتعشة كأنما يحاول أن يسترحمه فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه ، ثم عادوا وبين أيديهم فتى فى الثامنة عشرة من عمره أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفاً وفرقاً حتى وقفوا به بين يدى الأمير فسأل ماجريمته فقالوا انه قاتل ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب فطالبه بأداء ماعليه من المال فأبى وتوقح فى إبائه فانتهره القائد فاحتدم غيظاً وجرّد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته ، فصاح الناس ياللفظاعة والهول ، إن من يقتل نائب الامير فكأنما قتل الامير نفسه ، ثم جئ بأعوان القائد المقتول فأدوا شهادتهم فأطرق الامير برهة ، ثم رفع رأسه وقال يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصاب على جذع شجرة ثم تفصد عروقه كلها حتى لا يبقى فى جسمه قطرة واحدة من الدم ، فصرخ الغلام صرخة حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن ، وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسناً وبهاءً لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجّى فوق جبينها فقال الأمير ماجريمتها فقال القاضى

انها امرأة زانية دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع فى الزواج منها قبل اليوم ، فهاج الناس واضطربوا وهتفوا القتل القتل الرجْم الرجْم انها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى ، فقال الامير أين شاهدها ، فدخل قريبُها الذى كشف أمرها فشهد عليها ، فهمس القاضى فى أُذن الامير ساعة ثم قال الامير تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم ، فهلّل الناس وكبّروا إعجاباً بعدل الامير وحزمه ، وإكباراً لسطوته وقوّتهِ ، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيهِ بالدعاء ، ثم نهض فنهض الناس بنهوضهِ ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين وخرجت على أثرهم حزيناً مكتئباً أفكر فى هذه المحاكمة الغريبة التى لم يُسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ولم يَشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ولم تُقدّر فيها العقوبات على مقدار الجرائم وأعجبُ للناس فى ضعفهم واستخذائهم أمام القوّة القاهرة وغلوّهم فى تقديسها وإعظامها واغراقهم فى الثقة بها والنزول على حكمها عدلاً كان أو ظلماً رحمة أو قسوة وأُردد فى نفسى هذه الكلمات

ليت شعرى ألا يوجد بين هؤلاء الثائرين على هؤلاء المساكين لص أو قاتل أو زان يعلم عذرهم فيرحمهم وينظر إلى جرائمهم بالعين

التى ينظر بها إلى جريمته ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة مايتمنى لنفسه إن قُدّر له أن يقف فى موقف مثل موقفهم ، أمام قضاة مثل قضاتهم ؟

ألايجوز أن تكون الزانية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعاً عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق مايسدّ بهِ جوْعته أو جوْعة أهل بيته ؟

ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة فى حياته فيرحم القاتلين عند النظر فى جرائمهم ؟

ألم يسقط فى يد الكاهن يوماً من الأيام دينار من غير حله فتخفّ لوعة حزنه على الغِرارة المسروقة من ديره ويغتفر هذه لتلك ؟

ألم تَزِلَّ قدم القاضى ساعة واحدة فى مامرَّ بهِ من أيام حياته فتهدأَ ثورةُ غضبه على الساقطين والساقطات ؟

من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون فى أرواح العباد وأموالهم كما يشاؤون ، ويُقسّمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟

انهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا أملاك مطهرين ، ولا يحملون فى أيديهم عهداً من الله تعالى يكل اليهم فيه أمر عباده

ويضع فى أيديهم حظوظهم وأنصبتهم ، فبأى حق يجلسون هذه الجلسة على هذه المقاعد ؟ ومن أى قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التى يستأثرون بها من دون الناس جميعاً ؟

من هو الامير ؟ أليس هو المستبد الأعظم فى الأمة أو سلالة المستبد الأعظم الذى استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعناق الناس وكواهلهم سلماً يصعد عليها إلى العرش الذى يجلس عليه ؟

من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمهرهم فى استغلال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟

من هو القاضى ؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟

ومتى كان المستبدون واللصوص والظَلَمة أخياراً صالحين ، أو أبراراً طاهرين

عجيب جداً أن يقتل الرجلُ الرجلَ لغضبة يغضبها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرماً ، فاذا قتل الاميرُ القاتلَ سمى عادلاً ، وان يسرق السارق اللقمة يقتات بها أو يُقيت بها عياله فيسمى لصًّا ، فاذا أمر القاضى بقطع أطرافه والتمثيل به سمى حازماً ، وأن تسقط المرأة سقطة ربما ساقتها إليها خُدْعة من خُدَع الرجال أو نزغة من نزغات الشيطان فيستنكر الناس أمرها ، ويستبشعون منظرها ،

فاذا رأوها مشـدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة الرجم من كل صوب أسوا بمشهدها وأعجبهم موقفها ومصيرها كما ان النار لاتطفئ النار ، وشارب السم لايعالَج بشربهِ مرّة أخرى ، ومقطوع اليد اليمنى لايعالج بقطع اليد اليسرى ، كـذلك لا يعالَج الشرّ بالشرّ ، ولا يُمحى الشقاء فى هذه الدنيا بالشقاء

ولم أزل أحدّث نفسى بمثل هذا الحديث حتى أقبـل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير فى جوها اسراب من الطير غادية رائحة فاخترقتُها حتى بلغتُ أبْعَد بقاعها عن أطرافها فرأيت منظراً هائلاً لا يزال أثره عالقاً بنفسى حتى اليوم

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لا رأس لها ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواليه كأنها نوادب يندبنَه حاسرات ، ورأيت الفتى مشدوداً إلى شجره فرعاء كأنه بعض أغصانها وقد سال جميع مافى عروقه من الدم حتى أصبح شبحاً ماثلاً ، أو خيالاً سارياً ، ورأيت الفتاة كـتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ولا قدم وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بجانب هذه الجثث الثلاث حفرة جوفاء تَفهَق بالدم فعلمت انها مجمع دما هؤلاء المساكين فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عينيّ قليلاً قليلاً حتى غاب عن نظرى كل شىء فسقطت فى مكانى

لا أشعر بشيء مما حولي فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل ففتحت عينيّ فاذا شبح اسود يدنو مني رويداً رويداً فارتعت لمنظره وفزعت إلى ساق الشجرة فاختبأت وراءه ، فما زال يتقدم حتى صار تحت الشجرة فأشعل مصباحاً صغيرًا كان في يده فتبينتهُ على نوره فإذا عجوز شمطاء في زي المساكين وسحنتهم فمشت تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه ساعةً تبكيه وتندبه ثم مشت الى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جثته ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه وتقول : « في سبيل الله ماالقيتَ في سبيلي وسبيل أحفادك البؤساء أيها الشهيد المظلوم ، وفي ذمة الله وكنفه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ، فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً ، وأطهرهم لساناً ويداً ، وأشرفهم قلباً ونفساً ، فاذهب الى ربك لتلقى جزاءك عنده واطلب اليهِ الرحمة لجميع الناس حتى لقاتليك وظالميك ، وأسأله أن يُلحقني بك وشيكا فلا شيء يعزيني عنك بعد فراقك ، إلا الأمل في لقائك » ، فأبكاني بكاؤها ، وأحزنني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما تقول وأن شيخَها شهيد من شهداء القضاء وأحببت أن أقف على قصتها وقصته فبرزت من مخبئي ومشيت إليها فارتاعت لمرآي عند

النظرة الأولى ثم سكنت كأنما ذكرت أن لاقيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذى نزل بها منذ اليوم فابتدرتها بقولى لاتُراعى ياسيدتى فأنا رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه ولا من شأن أهله شيئاً وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر ونفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك وتمنيت لو أفضيتِ إلىّ بذات نفسك علنى أستطيع أن أكون عوناً لك على همك، فاستعبرت باكية وأنشأت تحدثنى وتقول

إن زوجى لم يكن فى يوم من أيام حياته لصاً ولا سارقاً بل قضى أيام سبابه وكهولته عاملاً مجداً لايفتُر ساعة واحدة عن السعى فى طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبِر ولده وكان واحدَه فاشتد بهِ ساعده وحمل على عاتقه بعض ما كان يستقل بحمله من الهم وماهو إلا أن نعِمنا به وبمعونته برهة من الدهر حتى نزلت بهِ نازلة القضاء فذهبت بحياته أحوجَ ما كنا إليه وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لايتجاوز أكبرهم العاشرة من عمره وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة فاجتمع عليهِ هم الكبَر وهم الثُكل فأصبح عاجزاً عن العمل لايستطيعه إلا فى الفَينة بعد الفينة (١) وأصبحنا جميعاً فى حالة من الشقاء والبؤس لايَعرف مكانها من نفوسنا إلا من ألمَّ

---

(١) الفينة الساعة والحين

به في حياته طرف منها حتى طلعت علينا شمسُ يوم من الأيام وليس في يدنا ما نقوّم به أصلاب صغارنا ولا ما نعللهم به تعليلاً فأُسقط في يدنا وعلمنا أنا هالكون جميعاً ان لم يتداركنا الله برحمة من عنده فلم أرَ بداً من أن ألجأ إلى الخُطة التي يلجأ اليها كل مضطر عديم فبرزتُ للناس أتعرّض لمعروفهم وأستندى ماء أكفهم فلم أجد بينهم من يحسن إليّ بجرعة ولا مُضغة ولا من يدلني على سبيل ذلك ، وكان أكبرَ ماحال بيني وبينهم وصرف وجوههم عني أني لا ألبس مرقعة الشحاذين ولا أحمل رِكوتهم [1] فعدت إلى منزلي وبين جنبيّ من الهمّ ما الله به عليم فرأيت الأطفال سُهّدا يتضاغوْن [2] جوعاً ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل تربة الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لايعلم ماذا يصنع ولا كيف يحتال ،ولو أن شخص الموت برز إليّ في تلك الساعة لكان منظره أهون على نفسي من منظر هؤلاء الصبية وهم يحدّقون في وجهي عند دخولي ويدورون بأعينهم من حولي ليروا هل عدت إليهم بما يسدجوعتهم ؟ وماعدتُ إليهم إلا باليأس القاتل ، والكمد الشامل ، فتقدمتُ نحو الشيخ وقلت له إن في دير المدينة كما يزعمون مالاً

---

(١) الركوة وعاء للماء على صورة الزورق يحمله الشحاذون

(٢) يتصاعون من الجوع يتصورون منه

للصدقات يتولى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين فلو ذهبتَ اليه وكشفت له خَلتك وسألته أن يمنحك عُلالة من ذلك المال تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفئ لوعة هؤلاء الأطفال المساكين ، فاستنار وجهه بنور الأمل وقام الى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أبقت الأيام فى جفنيه القريحين من دموع فاستقبله الكاهن بأقبح مايَستقبل بهِ مسؤول سائلاً وقال له إن الدير لايحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل وما كنتَ فى يوم من أيام رغدك ورخائك من المحسنين إليه ، فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك فان ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها ، فخرج من حضرته كئيباً محزوناً لا يرى فضاء الدنيا فى نظره إلا ككِفة الحابل [1] أو أُفحوص القطاه [2] حتى نزل الى ساحة الدير فلمح فى إحدى زواياها غِرارة [3] دقيق فحدثته نفسه بها وما كانت تحدثه لولا العوَز والفاقة ثم أدركه الحياء فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها فوقع نظره عليها مرة

---

(١) الحابل الصائد لانه يرمي الحبالة للصيد وكفته حبالته

(٢) الحوص القطاة مجثمها لانها تفحص عنه التراب لتبيض فيه

(٣) الغرارة الجوالق

أخرى فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه فلم يستطع فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : « إن الطعام طعام الفقراء والمساكين وأنا فقير مسكين لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ولا فى جميع أرباضها رجلاً أحوج ولا أفقر منى ، فان كان الطمع فى هذه الغرارة جريمة فقد أذن لى الكاهن بارتكاب الجرائم فى سبيل العيش » ثم مشى اليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهداً مترجّحاً فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بالقائه عن ظهره ثم تمثَّل له منظر أحفاده الصغار وهم ألقاءٌ[1] تحت جدران البيت يتضورون جوعاً فحمَل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة وعلى الجدران أخرى حتى نال منهُ الجهد فأحس كأن أنفاسه قد جمَدَت فى صدره لاتهبط ولا تعلو وأن ما كان باقياً فى عينيه من نور قد أنطفأ دفعة واحدة فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله وإذا نَفثة من دم قد دَفَقتْ من صدره فانحدرتْ على ردائه فسقط فى مكانه مغشياً عليهِ ، ولم يزل على حاله تلك حتى مرَّ بهِ العَسَسُ[2] فرأوه ورأوا الغِرارة بجانبه فارتابوا بهِ وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصايحون فيما بينهم

---

(١) الالقاء جمع لقى كفتى ، واللقى الشيء الملقى المطروح

(٢) العسس الطائفون بالليل لحراسة الناس أو كشف أهل الريبة

الغرارة ! الغرارة ! ويشدونها فى أنحاء الدير حتى يئسوا منها فخرجوا يطلبونها فى كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ فعرفوا ضالّتهم وما هى إلا ساعة حتى كانت الغرارة فى الدير وكان الشيخ فى السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيتَ من أمره ، فوا أسفا عليهِ لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمتاه لى ولأطفالى البؤساء المساكين من بعده

ثم نهضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف ردائها ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يارفيق صباى وعماد شيخوختى ، الوداع ياخير الأزواج وأبرّ العشراء ، الوداع حتى يجمع الله بينى وبينك في دار جزائهِ » ، ثم انكفأت راجعةً فى الطريق التى جاءت منها

وما هو إلاّ أن تغلغل شخصها فى أعماق الظلام حتى رأيت شبحاً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول وأقبل يتقدم نحوى متسلّلاً كأنما يَختلس خطواته اختلاساً فاختبأتُ وراء الشجرة لأرى ماهو صانع وكان القمر قد بدأ يُشرف على الوجود من مطلعهِ ويرسل الخيوط الأولى من أشعتهِ على تلك الساحة الكبرى فرأيتُ الشبحَ على نوره فاذا فتاةٌ جميلة باكية لم أرَ فى حياتى دمعةً على خد أجمل من دمعتها على خدها فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على

جثة المصلوب بين أغصان الشجرة فمشت اليهِ ومدت يدها الى الحبل الملتف بهِ فعالجت عقدتَه حتى انحلت ثم تلقته على يدها وأضجعتهُ على الأرض ووقفت بجانبه ساعة تنظر اليهِ جامدة ساكنة كأنها غير آبِهَةٍ ولا حافلة ثمَّ هتفت صارخةً واشقيقاه! وسقطت فوقه تضمه وتقبلهُ وتلثم شعره وجبينه وتَزْفِر فيما بين ذلك زفيراً شديداً كأنما تَنْفُثُ أفلاذَ كبدها نَفْثاً حتى نال منها الجهد فمالت برأسها وهوت بجانبه هُوِيّ الجذع الساقط لاحراك بها، فأهمني أمرها وخفتُ أن يكون قد لحق بها مكروه فمشيت اليها حتى صرت بجانبها فشعرتُ بانفاسها الضعيفة تتردد في صدرها فعلمت أنها حية فجلستُ فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد برهة فرأتني بجانبها فنظرت اليَّ نظرة حائرة ثم تقدمتْ نحوي وقالت على مَنْ تبكي أيها الرجل الغريب في هذا المكان؟ قلت أبكي عليكِ ياسيدتي وعلى فقيدكِ البائس المسكين، قالت نعم انه بائس مسكين فابكِ عليهِ ياسيدي بكاءً كثيراً فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة النفوس ومُتعة الأفئدة والقلوب، ولقد ظلموه اذ قتلوه فما كان قاتلاً ولا مجرماً ولكنهُ رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطعَ تلك اليد الممتدة اليهِ وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها،

ولو أنصفوهُ لاستبقَوْهُ رحمةً بهِ وبشبابه فما أجرمَ من ذاد عن عرضهِ ، ولا أثِمَ مَنْ قتَل قاتِلَه ، قلت هل لكِ أن تقصى عليَّ قصته ياسيدتى ؟ قالت نعم :

نزل قريتنا فى صباح يوم من الأيام قائدمن قواد الامير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب من أهلها فما زال يمرُّ بأبيات القرية بيتاً بيتاً حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابهِ فنظر الىَّ نظرةً مريبةً طار لها قلبي خوفاً وفزعاً ثم سألنى عن أخى فدللتهُ عليهِ فسألهُ عن المال فاستنسأه (١) إياه أياماً قلائل حتى يبيع غلّته فأبى إلاّ أن يتعجلّه الساعةَ أو يأخذنى رهينة عنده الى يوم الوفاء وغمز بى بعض أعوانهِ فداروا حولى وكنتُ أسمع قبل اليوم حديث هؤلياء الفتيات الشقيات اللواتى يدخلنَ قصر الامير رهائن فلا يخرجنَ منهُ إلاّ ساقطات أو محمولات إلى قبورهنَّ فنزعت الى أخى ولصقتُ بهِ فوقف بينى وبين الرجل وقال لهُ لا شأن لك مع الفتاه إنما أنا صاحب المال والمأخوذ بهِ فان كان لابدَّ لك من رهينة فأنا رهينةُ مالى حتى يصل اليك ، فقال لهُ لابدَّ لى من المال أو الرهينة ولا بدَّ ان تكون الرهينة التى أريدها فان أبيتَ فحياتك فداء عنها ، فغضب أخى غضبةً انتفضَ لها فى جبينهِ

---

(١) استنسأه غريمه الدين طلب منه أن ينسئه اياه أي يؤجله له

عرق لم أره في ساعة من ساعات غضبه قبل اليوم وقال له « فلتكن حياتي فداء لشرفي » ثم جرد سيفه وضربه به ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دماً حتى غلّه[1] الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلك حياته ياسيدي وذاك مماته ، فلئن بكيتُه فإنما أبكي فتى الفتيان همةً ونجدة ، ونادرة الرجال عزة وإباء ، وأفضل الأخوة رحمةً وحناناً

ثم قالت هل لك أن تعينني ياسيدي على مواراته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحتُ واهية متضعضعة لا أقوى على شيء فقمت إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فواريته فيها فتقدمت الفتاة الى القبر وجثت بجانبه ساعةً مطرقةً ساكنة لا أعلم هل هي باكية أو ذاهلة حتى فارقتْ مكانها فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ثم مدت يدها اليَّ وقالت : سكراً لك ياسيدي فقد أعنتني على موقف لا يجد فيه مستعين معيناً ، ومضت لسبيلها

فأتبعتُها نظري حتى اختفتْ آخر طية من طيات ردائها فعدتُ الى نفسي فاذا جثةُ الفتاة المرجومةِ لا تزال في مكانها فهاجني منظرها وقلتُ في نفسي : انني لا أدخر لنفسي عملاً

(١) غله وضع في عنقه الغل

أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب ، فاحتفرتُ لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ثم ألقيت عليها ردائى واحتملتها على يدى حتى أضجعتها فى حفرتها ، فانى لأحثو عليها التراب إذ شعرتُ بحركة ورائى فالتفتُّ فاذا فتى يافع متلفعٌ ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجهه فابتدرنى بقوله مَن صاحب هذا القبر الذى تحثو ترابه ياسيدى ؟ قلت فتاةٌ مرجومة رأيت جثتها الساعةَ منبوذةً فى هذا العراء فرحمتُ مصرعها واحتفرت لها هذا القبر الذى تراه ، قال ان لى ياسيدى مع هذه الفتاة شأنًا فهل تأذن لى أن أودعها الوداع الأخير قبل أن يحول الترب بينى وبينها ؟ قلت نعم شأنك وما تريد ، وتنحيت قليلاً فدنا من القبر وجثا فوق ترابه وظلَّ يناجى الدفينه نجاء خلت أن الكواكب تردده فى سمائها ، والرياح ترجّعه فى أجوائها ، حتى اشتفَتْ نفسهُ فقام إلى التراب يهيله عليها حتى واراها ثمَّ التفت الىَّ وقال لقد شكر الله لك ياسيدى هذه اليد التى أسديتها الى هذه الفتاه المظلومة بستر ما كشف الناس من عورتها ، وحفْظ ما أضاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً بما فعلت ، وأحسن اليك كما أحسنت اليها ، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت لهُ : وهل ماتت هذه الفتاة مظلومةً كما تقول؟ فانفرجت شفتاه

عن ابتسامة مرة ونظر الىّ نظرة هادئة مطمئنة وقال نعم ياسيدى ولولا ذلك ما رأيتنى الساعة واقفاً على حافة قبرها أندبها

أنا الرجل الذى اتهموها به وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربى يوم أقف بين يديه رافعاً اليه ظُلامتها إنها بريئة مما رموها به وانها أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية

لقد أحببت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة وأحبتنى كذلك ثم شبَبْنا وشبّ الحب معنا فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ثم خطبتها الى أبيها فأخطبنى (١) راضياً مسروراً حتى اذا لم يبقَ بينى وبين البناء بها الاّ أيام معدودات اذ نزلت بأبيها نازلة الموت فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عاماً كاملاً ففعلنا حتى اذا انقضى العام أو كاد حدث أن ذهبت الفتاة الى قاضى المدينة فى أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضى فتبعتْها نفسه فأرسل وراء عمها وكان ولىّ أمرها بعد أبيها وهو رجل من الطامعين المداهنين الذين لا يبالون أن يخوضوا بحراً مائجاً من الدم اذا تراءى لهم على شاطئه الثانى دينار لامع فعرض عليه رغبته فى الزواج من ابنة أخيه فطار بهذه المنحة فرحاً وسروراً ولم يتردد فى اجابة طلبه وعاد الى الفتاة يحمل اليها هذه البشرى فاستقبلنه بوجه باسر وقالت له

---

(١) أخطبه قبل خطبته

إنني لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين فى آن واحد ، فلم يُبَل بقولها وقال لها ستتزوجين ممن أريد طائعةً أو كارهةً فلا خيار لك فى نفسك انما الخيار لى فى أمرك وحدى ، وما هى الا أيام قلائل حتى أعدوا لها عُدة زواجها وسمّوا يوماً لزفافها ، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعتْ ما كان لها فى بيتها من ثياب وحلية وخرجت تحت ستار الليل هائمةً على وجهها لا تعلم أين تذهب ولا أى طريق تسلك ، وكان عمها قد رفع الى القاضى أمر فرارها فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها فى كل مكان حتى لمحها بعضهم على البعد جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها فى مكانها وفرت من بين يديه تعدو عدواً سريعاً وكنتُ عائداً فى تلك الساعة الى منزلى فرأتنى فألقت نفسها علىّ وقالت انهم يتبعوننى وانهم ان ظفروا بى قتلونى فارحمنى يرحمك الله ، فأهمنى أمرها وذهبت بها الى منزلى وأخفيتها فى بعض حجراته وما هى الا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضى يطلبها طلبا شديداً فأنكرت رؤيتها فلم يصدقنى وأخذ يضرب أبواب الحجرات باباً باباً حتى ظفر بها فصاح : هاهى ذا الفتاة الزانية وهذا صاحبها ، فأقسمتُ له بكل محرجة من الايمان أنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ الىّ ، وأمر الأعوان فاحتملوها

وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني أحدهم على رأسي ضربةً طارت بصوابي فسقطتُ مغشياً عليّ فلم أستفق الاّ بعد برهة طويلة فوجدت الحمى قد أخذت مكانها من جسمي فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لى ذلك المنظر الذى رأيته فأشعر بالرعدة تمشي في أعضائي فأعودَ الى ذهولي واستغراقي حتى أدركتني رحمة الله فأبللت منذ الأمس بعض الابلال واستطعت أن أخرج الليلة من منزلي فعلمت ماتم من أمر الفتاة فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير وأواري جثتها التراب ، وما أنا بالسالي عنها ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن ويأس ولوعة وشقاء ومضى لسبيله

فما أبعَد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر الى مغربه ثم ما لبث أن اختفى فاذا الفضاء ظلمة وسكون ، واذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدتُ إلى ربوة عاليـة مشرفة على القبور الثلاثة فتلففتُ بردائي وأخذت مضجعي منها وأنشأت أحدث نفسي وأقول

ليت شعري ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ولا راحم ؟ فاذ

خلت منهما رقعة الأرض فهل خلت منهما ساحة السماء ؟

أجرمَ الزعيم الديني لأنه ضنّ على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال الله يسد بهِ جوْعته وجوْعة أهل بيته فاضطر الرجل الى ارتكاب جريمة السرقة فعوقب السارق على سرقتـه ، ولم يعاقب القاسي على قسوته ، ولولا قسوة القاسي ما كانت سرقة السارق

وأجرمَ الامير لأنه أرسل قائده لاختطاف فتاه حره لا تؤثر أن تجود بعرضها فاضطر أخوها الى الدود عنها فارتكبَ جريمة القتل فى ذياده فعوقب الفتى على جريمته وسلِمَ دافعهُ إلى الإجرام

وأجرَم القاضى لأنهُ أراد أن يكره فتاةً لاتحبه على الزواج منهُ ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوه على ظلمه واستبداده

وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبرىء مجرماً ، بل أصبح المجرم قاضى البرىء وصاحبَ النظر فى أمره

فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم أم لاتزال تُنيرها بكواكبها ونجومها ، وتمطرها غيثَها ومُزْنها ؟

ثم التفتُّ الى مصرع المقبورين فوقع نظرى على بركة الدم التى اجتمعت فيهـا دماء هؤلاء الشهداء فرأيت خيال نجم فى السماء يتلألأ فوق صفحتها فرفعتُ نظرى الى ذلك النجم فاذ

هو المريخ (١) يتأهَّب ويضطرم كأنهُ جمرة الغيظ فى أفئدة
الموتورين فعلق نظرى بهِ ساعةً ثم رأيت كأنهُ يهبط الى الأرض
شيئاً فشيئاً فيعظم جرمهُ كلما ازداد هبوطه حتى اذا لم يبق بينهُ
وبين الأرض الا ميل أو بعض الميل إذا بهِ ينتفض انتفاضاً
شديداً وإذا هو على صورة ملَك من ملائكة العذاب ينبعث
الشرر من عينيه ومِنخَريه ويتطاير من أجنحته وأطرافه فلم يزل
هابطاً حتى نزل على رأس الشجرة التى تظلل قبور الشهداء
ثم صفّق بجناحيه تصفيقةً اهتزت لها جوانب الأرض وأضاءت
بها الأَرجاء ثم أخذ ينطق بصوت كأنه جلجلة الرعد فى أعماق
السماء ويقول

هاهم الناس قد عادوا الى ما كانوا عليه ، وهاهى الأَرض قد
مُلئت شراً وفساداً حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة يستطيع أن
يأوى اليها فى مَهبطه مَلَكٌ من أملاك السماء

هاهم الأَقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفاً ،
وهاهى لحوم الفقراء تنحدر فى بطون الأَغنياء انحداراً ، فلا
الأَولون بمستمسِكين ، ولا الآخرون بقانعين

هاهم الفقراء يموتون جوعاً فلا يجدون من يحسن اليهم ،

(١) يسمى قدماء اليونان في اساطرهم المريخ اله الحرب

والمنكوبون يموتون كمداً فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم

هاهم الامراء قد خانوا عهد الله وخفروا ذمته فأغمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق وتقلدوا سيوفاً غيرها لا هي الى الشريعة ولا الى الطبيعة ومشوا بها يفتحون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذاتهم حتى ينالوا منها مايريدون

هاهم القضاة قد طَمِعوا وظلموا ووضعوا القانون ترساً أمام أعينهم يُصيبون من ورائه ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ولا يُنالون

هاهم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا فحولوا معابدهم الى مغاور لصوص يجمعون فيها مايسرقون من أموال العباد ثم يضنون بالقليل منه على الفقراء والمساكين

هاهم الناس قد أصبحوا أعواناً للأُمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأَديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعاً نقمة الله ملوكاً ومملوكين ، ورؤساء ومرءوسين

لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتنهض المحاكم ، ولْيعمَّ الخراب المدن والأَمصار ، والسهول والأَوعار ، والنجاد ولأَغوار ، ولْتغرق الأَرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال

والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأخيار والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

وما انتهى من دعوته تلك حتى رأيت بركة الدم تفور كما فار التنور يوم دعوه نوح ثم فاضت الدماء منها ومشت تتدفق فى الأرض تدفق السيل المنحدر وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويعتلج ويكتسح أمامه كل شىء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وانسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يعلو شيئاً فشيئاً حتى ضرب بأمواجه رأس الربوة التى أنا جالس فوقها فصرخت صرخةً عظمى فاستيقظتُ من نومى وكان ذلك فى صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فاذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتى : إعلان الحرب !

الضحية

« مترجمة »

نشأت مرغريت جوتييه فقيرةً لاتملك مالاً تشترى به زوجاً ، ولا تجد بين الرجال من يبيعُها نفسَه بلا مال ، أو يحسن اليها بما يسد خلَتها ، ويستر عورتها ، وكان لابدّ لها أن تعيش ، فلم تجد بين يديها سوى عرضها فذهبت به الى سوق الشقاء والآلام فساومها فيه بعض المساومين بأبخس الأثمان فباعته اياه كارهة مرغمة وكانت من الخاسرين

لقد كان جمالها شؤماً عليها ، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت فى الناس من يرحمها ويحنو عليها ، ولكن الجمال سِلعة من السلع النافقة [1] لا يستطيع صاحبه أن ينال ما فى أيدى الناس ان كان فقيراً مُعوِزاً إلا من طريق المساومة فيه

لذلك نقِمت تلك الفتاة المنكوبة على الرجال جميعاً ، وأقسمت

---

(١) نفقت السلعة راحت ورغب الناس فيها

أن تتخذ من جمالها الذى هو مطمح أنظارهم ، وقبلة آمالهم ، آلة انتقام تنتقم بها منهم لعرضها وشرفها

ولقد برت يمينها برّ الوفىّ بعهده فعاشرت الرجال ولم تحبهم ، ونكبتهم فى أموالهم وفى أنفسهم ولم تأسف عليهم ، ونظرت الى دموع الباكين تحت قدميها نظرات الغبطة والسرور وهى تقول

ويحٌ لكم معشر الرجال ما كنتُ أطلب منكم باسم الفضيلة والشرف إلا رغيفاً واحداً لغدائى ، وآخر لعشائى ، فأبيتموهما علىّ ، فلما طلبتُ منكم باسم الرذيلة جميع ماتملك أيديكم من مال ونشب بذلتموه لى طائعين مختارين ، فما أصغر نفوسكم ، وأخس أقداركم

لقد كان فى استطاعة أصغركم شأناً ، وأهونكم على نفسه وعلى الناس جميعاً ، أن يشترى منى جسمى وقلبى وحياتى بلا ثمن سوى سد خلتى ، وصيانة عرضى ، فلم تفعلوا ، فهاهم اليوم عظماؤكم وأشرافكم يجثون تحت قدمىّ جثىّ الكلب الذليل تحت مائدة سيده ، فلا ينالون منى أكثر مما ينال منها

أحببتم المال حباً جماً فأبيتم الا أن تتزوجوا ذات مال لتضموا طارفها الى تليدكم (١) فابذلوا اليوم لامرأة مومس لاتمنحكم مالاً ولا حباً جميع مافى أيديكم من فضة وذهب ، حتى لا يبقى لكم طارف ولا تليد

---

(١) الطارف من المال حديثه والتليد قديمه

*
* *

ظهرت مرغريت في سماء باريس كوكباً متلألئاً يبعث الأنوار، ويَبهَر الأنظار، ويملأ أجواز الفضاء، بهجة وضياء، فطارت حولها العقول طيران النحل حول الزهر، وسال النُضار بين يديها سيلان الجدول المتدفق تحت أشعة الأصيل، وعنَت لها الوجوه الكريمة، وتعفرت تحت قدميها الجباه الرفيعة، وأصبحت أعناق الرجال في يديها كأنما قد سلَكتهم جميعاً في سلك واحد، ثم أمسكت بطرف السلك تحركه فيتحركون، وتمسك عنه فيمسكون، وكان شأنها معهم شأن صاحب الكلب مع كلبه، لا يُشبعه فيستغنيَ عنهُ، ولا يُجيعه فييأسَ منه، فكانت تملأ نفس عاشقها أملاً ورجاء حتى اذا ظن أن قد دنا بهِ حظه، وأن ليس بينه وبين أمله إلا أن يمد اليهِ يده فيناله، ذادته عنه ذود الظامئ الهيْمان عن ورده أدنى مايكون من فمه، فاذا علمتْ ان اليأس قد بلغ من نفسه، وانه قد أزمع أن يركب رأسَه الى حيث لامردّ له، بعثتْ وراءه شعاعاً من أشعة ابتساماتها العذبة الخالبة فاستردتْه به اليها صاغراً مذعناً

وكذلك أصبحت تلك الفتاة الجائعة العارية التي كانت تُعوِزها بالأمس اللقمة، ونُعييها الخرقة، سيدةَ باريس، وصاحبةَ عرشها،

ومالكة أزمّة رجالها ، وفاجعة قلوب نسائها ، والنجمَ الخافق الذى تبتهل اليهِ العيون ، والسرّ الغامض الذى تحار فيهِ الظنون

ذلك مايعلمهُ الناس من أمرها ، أما ماتعلمهُ من أمر نفسها وهى انها كانت ترى ان جميع مايَبذله لها الناس من فضة وذهب ، وأثاث ورياش ، وقصور ودور ، وجياد ومركبات ، لايساوى دمعة واحدة من تلك الدموع التى سكبتها على نفسها يوم باعت عرضها ، وان جميع هذه اللآلئ والجواهر والأردية والتيجان التى يهبونها إيّاها إنما يهبونها لأنفسهم ليتمتعوا بمنظَرها على جسمها كما يتمتع صاحب الكلب بمنظر القِلادة فى عنق كلبهِ وما له من ذلك شىء ، فكأنما باعت عرضها بلا ثمن ولا جزاء

وكانت تخلو بنفسها حيناً فتذكر ان جميع هذه القلوب الطائرة حولها إنما تطير على جمالها لاعليها ، وانها إن حُرِمتْ هذا الجمال ساعةً واحدةً انفضّ الناسُ جميعاً من حولها ، وأصبحتْ وحيدة منقطعة فى هذا العالم لايَعطف عليها قلب ، ولا تبكى عليها عين ، فتبكى بكاءَ الأَشقياء على أنفسهم ، بل ترى انها شقية مثلهم ، لأَنها تعاشر من لاتحب ، وتحيا بين قوم لايحبونها الاّ حبّاً كاذباً

وربما مرّت فى بعض غَدواتها أو رَوْحاتها بغرفةِ حارس قصرِها وهو جالس بين زوجته وأولاده يمنحهم حبّهُ واخلاصَه ،

ويمنحونهُ من ذلك مثل مايمنحهم ، فتتمنى ان لو كان جميع حظها من هذه الحياة غرفةً كهذه الغرفة ، وزوجاً وأولاداً كهذا الزوج وهؤلاء الأَولاد ، ثم لا نطلب بعد ذلك شيئاً

وما رآها الناس في يوم من أيامها قَبِلتْ في قصرها رجلا متزوجاً أو خاطباً ، فكانوا يحملون ذلك من أمرها على محمل الاثَرة ، ويقولون إنها امرأة طامعة لاتحب الاّ أن يكون عاشقها خالصاً لها ، ولو انهم عرفوا سرّ حياتها ، وألمّوا بسريرة نفسها ، لعلموا انها امرأة حزينة منكوبة قد فجعها الدهر في سعاده الزوجية فعَرفَتْ قيمتَها فهي لاتحب أن تَسلُبَها امرأةٌ غيرَها

ولقد تَحدّثَ بعض الذين عرفوا بعض شؤونها الخاصة انها وهبت مرتين أو ثلاثا بعضَ الفتيات الفقيرات مهوراً يستعنَّ بها على الزواج ممن يُرِدْن ، فلم يصدق الناس هذا الخبر وقالوا إن السالب لا يكون واهباً ، وإن ينبوع الخير لا يتفجّر في قلوب الفاجرات ، ولكن الحقيقة انها فعلت ذلك ، وربما فعلت أكثر منه

هذا هو قلبُ مرغريت ، وهذه هي سريرةُ نفسها ، فهي فتاة فاسدة ولكنها غير راضية عن فسادها ، وساقطة ولكنها لاتحب أن ترى الفتيات ساقطات مثلها ، وربما لو كان في استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها وإنابتها مكانتها في

قلوب الناس ، وأن تمحوَ بصلاحها ماسلف من فسادها ، لكانت هى أقرب النساء الى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذى أسقطها وسلبها ذلك الرداء من الشرف الذى كانت ترتديهِ يأبى عليها أن يعيد اليها رداءها ان طلبَتْهُ ، ولابد لها من الاستمرار فى سقوطها راضيةً أو كارهةً ، وكذلك كان شأنها

*
* *

لم يمضِ على مرغريت فى حياتها هذه أكثر من خمسة أعوام حتى نزل بها مرضٌ حجبها فى بيتها عدة أيام ثم استد عليها فأشار عليها الأطباء أن تذهب الى حمامات « البانيير » للاستشفاء بمائها وهوائها فسافرت اليها وحدها لايَصحبها الا خادمتها ، وكان فى ذلك المُصطاف [1] فى هذا العام شيخ من الأسرياء اسمه الدوق موهان حضر اليها مع ابنته وكانت مريضة بداء الصدر ليشفيها من دائها فلم تُجْدِها العلاج وماتت بين يديهِ فدفنها هناك ، ولبث بعد موتها عدة أيام يختلف الى قبرها ويبكيها بكاءً شديداً ، فانهُ لعائدٌ من المقبرة ذات يوم إذ لمح فى طريقهِ مرغريت سائرةَ وحدها وكان ذلك فى اليوم الثانى من وصولها الى البانيير فدُهش لمنظرَها دهشة عظمى وخُيل اليهِ ان الله قد بعث له ابنته

---

(١) المصطاف مكان الاصطياف

من قبرها ، أو أرسل اليهِ خيالها ليعزيَه عنها ، لمكان الشبه الذى رآه بين صورة هذه الفتاة وصورتها ، فتقدم نحوها ذاهلا مشدوهاً وأمسك بطرف ردائها وظل يحدّق فى وجهها تحديقاً طويلا فعجبتْ لشأنهِ وسألتْهُ مابالهُ فقال لها : هل تأذنين لى ياسيدتى أن أُقبّل يدك ؟ فمدّت اليهِ يدها وهى لاتعلم ماذا يريد ولا ما الذى أصابهُ فلثمها ثم اعتذر اليها عن جرأته ، بذهوله ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه فى ابنته ، وما راعه من الشبه بين صورتها وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه ، واستهلّت من جفنها دمعة رآها الشيخ من خلال أهداب عينيهِ المبتلة بالدموع فسقط على يدها يقبلها ويشكر لها تلك الدمعة التى جادت بها عليهِ فى ساعة شقائه ، ولم يزل سائراً معها حتى وصلا الى النُزْل فودعها ومضى بعد ما استأذنها أن يختلف اليها لزيارتها من حين الى حين فأذنته بذلك وصعدت الى غرفتها ، فلما خلت بنفسها أنشأت تفكر فى أمر تلك الفتاة المسكينة التى اختطفها الموت من يد أبيها فى زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيب ولا عائد ردّ عادية القضاء عنها ، ثم خطر لها انها مريضة بمثل المرض الذى ماتت بهِ وانها ربما ماتت موتها فلا تجد بجانبها أباً كهذا الأب يندبها ويبكى عليها ، فأثر فى نفسها

هـذا الخاطر تأثيراً شـديداً ، وبكت له بكاءً طويلا ، ولزمت غرفتها فى ذلك اليوم لا تفارقها

وما زال الدوق يختلف اليها بعد ذلك فيجالسها طويلا ويجد من الأنس بها ، والاغتباط بعشرتها ، مايسكّنُ لوعة نفسه كلما شبّها الوجد فى صدره ، حتى أصبح لا يستطيع مفارقتها ساعة واحدة ، وكأنما لذّ لهـا أن يَرى ذلك الشيخُ الثاكل المنكوب فى وجهها سلوتَهُ وعزاءَه فمنحتْهُ من عطفها وحبّها مالم تمنحهُ أحداً من قبله ، وأنِستْ بهِ أُنساً لم تأنسهُ بانسان سواه

وما هى إلاّ أيام قلائل حتى ابلّت بعض الإبلال[1] من مرضها وعاد الى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، والى ثغرها البديع ابتسامه وافتراره ، فلذّ لهـا المقام فى البانيير أياماً طوالا حتى شعَرت بهبوب رياح الشتاء فأزمعت العودةَ الى باريس فشقَ ذلك على الدوق وعلم انها ان عادت اليها لا يظفر منها فى ذلك المجتمع الهائل الحافل بخلانها وأصدقائها بمثل ما كان يظفر بهِ منها فى البانيير ، فخلا بهـا ليلةَ السفر ساعة وحادثها حديثاً طويلا انتهى بالاتفاق معها على أن تَهجر حياتَها الأولى حياة المخالّة والمعاشرة وتعايش فى منزل يهيئه لها ويقوم بنفقاتها فيهِ على أن تأذن له بالاختلاف

(١) ابل من مرضه برئ منه

اليها من حين الى حين ، ثم سافرا في اليوم الثانى الى باريس

ومنذ ذلك اليوم تغيّرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش فى قصرها الذى هيأه لها الدوق عيشاً بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلاّ قليلاً ، ولا تمتزج مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله ، وربما مرّت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلاّ قليلاً ، فاذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ومشت فى طريقها تقرأ فى كتاب أو فى جريدة فربما مرّ بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ، فاذا وقع نظرها على واحد منهم ابتسمت له ابتسامة قصيرة موجزة قلما يشعر بها أحد سواه ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل الى متنزّه «الشانزلزيه» فتنزل من عربتها وتمشى فى الغابة على قدميها ساعة ثم تعود الى قصرها ، فاذا جاء الليل ذهبت الى ملعب التمثيل وحدها أو مع الرجل القائم بشأنها فتقضى فيه اكثر وقتها ناظرة الى التمثيل لا يَشغلها كثرة الناظرين اليها ، والمتهافتين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والتأثر بوقائعها حتى تنتهى

فلم تمض عليها أيام كثيرة حتى علم الناس جميعاً أن مرغريت قد استحالتْ حالُها ، وتغيرتْ صورةُ حياتها ، وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ،

ورضيَتها لنفسها ، فلا سبيل الى مغالبتها عليها ، فقصُرتْ عنها اطماعهم ، وانقطعت منها آمالهم ، وظلوا يتلمَّسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التى طرأت عليها ، فذهبوا فى شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح ، وهى أن تلك الحادثة المحزنة التى حدثت لابنة الدوق شبيهتِها فى صورتها ومرضها فى البانيير قد أثرت فى نفسها تأثيراً شديداً ، وصَوّرت لها الحياةَ بصورة غير صورتها الأولى ، فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها ، وتستنكر سقوطها أكثر مما استنكرتهُ من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها مما فى أيدى الناس لأنها تعيش من مال الدوق فى نعمة لايطمع طامع فى أكثر منها ، وربما خطر لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذى لايطمع منها فى أكثر من أن يراها تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتى ينعمن بنعمة الشرف فى ظلال آبائهن ، فأعجبها هذا الخيال ولذَّ لها ، وكثيراً مابكت على الشرف قبل اليوم وحنّت اليهِ

*
* *

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقُرّاً ، فثار ما كان كامناً من داء مرغريت ، وعاد إليها نَفَثُها وسعالها ، فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ، لاتفارقها

يوماً حتى تعاودها أياماً ، فان ألمت بها لزمت سريرها لاتفارقه ، وإن رَوّحت [١] عنها برَزت إلى الخلاء فى بكور الأيام أو أصائلها تطلب الهواء الطلق ، والجوّ النقى ، وربما ذهبت فى بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتتفرج [٢] مما هى فيه فتخلو بنفسها فى مقصورتها ساعة أو ساعتين ثم تعود الى منزلها

وكانت لاتزال ترى فى المقصوره المجاورة لمقصورتها كلما ذهبت الى الملعب فتى فى زى أبناء الأشراف وشمائلهم لايزال يخالسها النظر من حين إلى حين ، فينظر إليها إن أغضت عنه ، ويُغضى عنها إن نظرت اليهِ ، ولا يلتقى نظرها بنظره حتى يتلهّب وجهه حمرةً ، ويَرفضّ جبينه عرقاً ، كأنما جنى جناية لامَقيل له منها ، فلم تحفل به كثيراً ، لأنها لم تر فى أمره شيئاً جديداً ، إلا أنها كانت تعجب لسكونه وجموده ، وطول إغضائه وإطراقه ، ولتلك الغبرة من الحزن المنتشرة على وجهه ، وكان أكثر مايدهشها منه أو يعجبها أنه الفتى الوحيد الذى كان يبكى فى ذلك المجتمع لمنظرَ المشاهد المحزنة التى تُمثل على مسرح التمثيل ، لأنها تعلم أن الفِتيان الفرحين المغتبطين بشبابهم وصحتهم لا يحفِلون بمناظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لايحفِلوا بتمثيلها

---

(١) روح عنه مس عنه مايسايقه ومنه (روحى ياعمد عنى)

(٢) تفرج طلب مايفرح عنه

فانها لخالية بنفسها فى مقصورتها ذات ليلة وكان الجو بارداً مقْشعرّاً إذا فاجأتها نوبة سعال اشتدت عليها كثيراً حتى كادتْ تسقط عن كرسيها ضعفاً ووهناً ، فشعرت بيد تمسك بيدها فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت عربتها فركبتها ، فشعرت بالراحة قليلاً فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يدَه فلم ترَ أمامها أحداً ، ورأت على بعد خطوات منها انساناً منصرفاً فلم تتمكن من رؤيته إلا انها تخيلت صورتَه تخيلاً ، فعجبت لأمره ومضت لسبيلها ، فما وصلت إلى منزلها حتى شعرت برعدة الحمى تمشى فى أعضائها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبلّتْ [1] قليلا فقدّمت اليها خادمتها بطاقات الزيارة التى تركها لهـا بعض الفِتيان الذين زاروها فى أثناء مرضها تجمُّلاً وتلوُّماً ، فلم تقرأ واحدة منها ، ثم حدثتها الخادمُ أن فتى كان يأتى للسؤال عنها فى كل يوم مرة أو مرتين ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وانه كان ينقبض انقباضاً شديداً كلما أخبرتْه أنها لا تزال طريحةَ فراشها تشكو وتتألم ، فاستوصفَتها إياه فوصفتْه فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب ، وتمنت لو رأته فشكرت له هذا الاخلاص النادر الذى لا عهد لهـا بهِ فى أحد من الناس

---

(١) أبل من مرضه برىء منه

جميعاً ، وأمرت خادمتها أن تخبرها خَبَرَه إن جاء للسؤال عنها مرةً أخرى ، فما لبث أن جاء وكانت مرغريت جالسة فى شُرفة المنزل المطلة على الطريق فرأته فعرفت أنهُ ذلك الفتى الحزين الذى كانت تراه فى المقصورة المجاورة لمقصورتها فى ملعب التمثيل ، وأنهُ صاحب تلك اليد التى امتدت لمعونتها ليلة النازلة التى نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالنزول اليهِ واستدعائه اليها ففعلتْ فاضطرب لهذه الدعوة اضطراباً شديداً حتى كاد يرفضها ثم شعر بمكان مرغريت من الشرفة فتلوّم ومشى وراء الخادمة حتى صعدت بهِ الى غرفة سيدتها فتركته وانصرفت ، فدخل عليها فحياها ووجهه يرفضّ عرقاً ولسانه لا يكاد يُبين ، فمدت اليهِ يدها فتناولها وقبلها قبلةً عرفتْ مرغريت سرّ ما أُودع فيها وهى العالمة بأسرار القبلات ، ثم أذنته بالجلوس فجلس فانشأت تسائله عن نفسه ، وعن قومه ، وعن سبب اهتمامه بشأنها ، وتبتسم له فيما بين ذلك ابتسامات تتألفهُ بها ، وتمسح عن قلبه ما ألم بهِ من الروع ، فحدثها انهُ غريبٌ عن باريس ، وانهُ وفد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته « نيس » ليقضى فيها ثلاثة أشهر أَذن له أبوه بها طلباً لتغيير الهواء ، وترويح النفس ، ثم يعود فى نهايتها إلى وطنه ، فسألتْه هل وجد المُقام حميداً هنا ؟ فصمت هنيهة ثم

نظر إليها نظرة منكسرة وقال : لا ياسيدتى ، قالت لماذا ؟ فحارت بين شفتيه كلمة لم يستطع أن ينطق بها فعاد إلى صمته وإطراقه فأعادت عليهِ سؤالها فقال لها ؟ هل تأذنين لى ياسيدتى أن أقول لك كل مافى نفسى ؟ فشعرت بما فى نفسه قبل أن يقوله وقالت له : قل ماتشاء إلا أن تطارحنى حبّك وغرامك ؛ فانى امرأة مريضة لاأستطيع أن أحتمل الحياة وحدها خالصة لامؤونة فيها فأحرى أن لاأحتملها مثقلة بالحب والغرام ، فاصفر وجهه اصفراراً شديداً ومد يده إلى دمعة تترقرق فى عينيه فمسحها ثم قال لها : ذلك مايحزننى ياسيدتى ويبكينى ؛ وينغص علىّ عيشى مذ هبطت باريس حتى اليوم ، فانى رأيتك فأحببتك للنظرة الاولى، ثم سألت عنك فعرفتُ من أمرك كل شيء، وعلمت انك تعيشين منذ شهور قلائل عيشة لامطمع فيها لطامع ، ولا أمل لآمل ، فانقطع أملى منك ، إلا أن حبي إياك لم ينقطع ، ثم رأيتك بعد ذلك فى ملعب التمثيل ورأيت هذا القناع الذى نسجتهُ يد المرض على وجهك الجميل فاستحال حبي اياك الى رحمة وشفقة، وأصبحتُ أبكى لمرضك ، أكثر مما أبكى لحبك ، وأصبح كل ما أتمنى على الله فى حياتى أن أراك بارئةً ناعمةً ، موفوراً لك حظُّك من سعادة العيش وهنائه ، ثم لاأطمع بعد ذلك فى شيء مما

يطمع فيه المحبون المغرمون ، فأنا أقف الساعة بين يديك لا لأطارحك الحب والغرام ، بل لأسألك أن تأذنى لى بالوقوف على بابك كلما جئت اليهِ لأسأل خادمتك عنك ثم أمضى اسبيلى من حيث لاترين وجهى ، ولا تشعرين بمكانى ، فسرَت فى أعضائها رِعدة غير الرعدة التى تعرفها من الحمى ، وخُيّل اليها انها تسمع نغمة فى الحبّ غير النغمة التى كانت تسمعها من قبل من أفواه الرجال ، فنظرتْ اليهِ نظرة لايعلم تأويلها أحد ثم قالت له : انى آذن لك بذلك ياسيدى ، واشكره لك شكراً جزيلا ، بل آذنك أن تزورنى كلما شئت على أن تفِد إلىّ صديقاً مساعداً ، لامحباً مغرماً ، فانى الى الأصدقاء المخلصين ، أحوج منى الى المحبين المغرمين ، ومدت إليهِ يدها فعلم أنها قد أذنته بالانصراف فقبَّلها وانصرف مسروراً مغتبطاً ، فأتبعتْه نظرَها حتى غاب عنها فسقطت على وسادة بجانبها وقالت : رحمتكُ اللهم فقد أصبحت أخشى أن أحبه

لقد أحبَّتْه من حيث لاتدرى ، فان الخوف من الحب هو الحب نفسه ، بل شعرت فى حبه بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل ، فاصبحت تستقبله فى منزلها كل يوم ، وتأنس به وبحديثه أنساً كثيراً ؛ وتُفضى اليهِ بذات نفسها كما يُفضى الصديق إلى

صديقهِ ، وتقص عليه ماضيها وحاضرها لا تكذبهُ شيئاً ، ولا تكتم عنه أمراً ، ثم ترامى بها الأمرُ حتى أصبحت تشعر بالوحشة إن تخلف عن ميعاد زيارته ساعة ، ثم حدث ان انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمرٍ عرض له لم يتمكن من اخبارها بهِ فحزنت لانقطاعه حزناً عظيماً ، وذهبت بها الوساوس والظنون كل مذهب ، ثم ذكرتْ ان ذلك الحزن وهذا الوسواس ليس من شأنها قبل اليوم ، فقلقت لذلك قلقاً شديداً ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على رأس الهوّة ولم يبق إلا أن تتردَّى فيها ، فسهرت ليلة طويلة عالجت فيها من نوازع النفس وجواذبها ما عالجت ، حتى أصبح الصباح وقد أضمرت فى نفسها أمراً

جاء أرمان فى صباح اليوم الرابع فوجدها طريحةَ فراشها وفى عينيها حمره البكاء والسهر فارتاع لمنظرها وقال لها : لعلك سهرتِ بالأمس كثيراً ياسيدتى أو بكيت ، فانى أرى فى عينيك أثر واحد منهما ، قالت : هُما معاً يا أرمان ، قال : وهل حدث شيء جديد من بعدى ؟ قالت اجلس بجانبي قليلا أيها الصديق أحدثْك حديثاً قصيراً ربما كان آخر حديث بيني وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تراني ، فذعر ذعراً شديداً وداخله من الرعب والهول ماملك عليه عقلَه ولسانَه فلم يستطع أن يقول شيئاً ،

وسقط بجانبها واهياً متضعضعاً ، وظلّ ينظر إلى وجهها نظرة المتهم إلى وجه قاضيه ساعة الحكم فاقبلت عليه تحدثه وتقول

عرفتُك يا أرمان فعرفتُ فيك الرجل الكريم الذى أحبنى لنفسى أكثر مما أحبنى لنفسه ، والصديق الوفىّ الذى امتزجت فى قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان ، فأوَى الىّ مريضةً حينما جفانى الناس لمرضى ، وعاش معى بلا أمل حينما انقطع الناس عنى ، لانقطاع أملهم منى ، فاضمرتُ لك فى قلبي من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحدسواك ، وسعدت بك سعادة لم أشعر بمثلها فى يوم من أيام حياتى الماضية ، ولكن الله الذى كتب لى الشقاء فى لوح مقاديره من ضجعة المهد ، الى رقدة اللحد ، لم يشأ أن يمتعنى طويلاً بهذه السعادة ، وأبى إلا أن يَسلُبَنيها وشيكا ، فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التى كنت أستمدّ منها سعادتى وهنائى قد أخذت تستحيل فى أعماق قلبي إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسى ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقائى وبلائى ، نخادعتُ نفسى عنها حيناً ، أكذّبها مرة وأصدّقها أخرى ، حتى كان ما كان من انقطاعك عنى هذه الأيامَ الثلاثة فشعرتُ لغيابك بحزن أقلقنى وأرمضَنى ، وملَكَ علىّ جميع عواطفى ومداركى ،

ولو شئت أن أقول لقلت إنهُ أبكانى بكاءً كثيراً ، وأسهرنى سهراً طويلاً ، فعلمتُ وا أسفاه أننى قد أصبحت عاشقة ، وأن هذا الذى يختلج فى قلبى ، ويقيمنى ويقعدنى ، إنما هو الحب والغرام ، فقضيت بالأمس الليل كله أفكر فى طريق الخلاص من هذه النكبة العظمى التى نزلت بى فلم أجد أحداً يخلصنى منها سواك ، فانا أسألك يا أرمان باسم الصداقة والود الذى تعاقدنا عليه بالأمس ، بل باسم الدموع التى طالما كنت تسكبها رحمة بى واشفاقا علىّ ، أن تنقطع عن زيارتى منذ اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلةَ إن استطعت ، ثم لا تعدْ الىّ بعد ذلك ، وسأحمل نفسى على الصبر عنك ، حتى يمنّ الله على براحة اليأس منك

ثم نظرتْ إليهِ لترى ما يقول ، فاذا هو جامد مصفر كأن وجهه وجه تمثال منحوت ، وإذا عيناه شاخصتان اليها شخوص العين الكفيفة القائمة [١] التى تنظر الى الشيء ولا تراه ، وبعد لأىٍ مَّا [٢] استطاع أن يحرك شفتيه ويقول لها بصوت خافت كصوت الضمير : وما ذا يخيفك من الحب يامرغريت ؟

قالت يخيفنى منه العقاب الأليم الذى أتوقعه على ما اقترفت

(١) العين القائمة التى ذهب نورها وبقيت حدقتها صحيحة
(٢) اللاي الجهد والمشقة وما هنا زائدة

من الذنوب والآثام فى فاتحة حياتى ، فاننا معشر النساء الساقطات مقدّرٌ لنا فى علم الله وغيبه ألاّ نزال نعبث بعقول الرجال وقلوبهم، ونبتليهم بصنوف العذاب وألوان الآلام ، حتى يغضب الله لهم ، ويغار عليهم ، فيبتلينا بحب نحمل فيه من العذاب جميع ما حمّلناه الناسَ ، ونشقى فيهِ شقاء لا ينتهى إلا بانتهاء حياتنا ، فنموت بين يدى أنفسنا مهملات مغفَلات لا ينعانا ناع ، ولا يبكى علينا باك ، فهذا الذى أخافه وأخشاه ، وأُحبّ أن يسبق إلىّ أجلى قبل أن أراه

أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا أرمان ، فأنت أجل من ذلك عندى ، ولكنى أعلم أنك باقٍ فى هذا البلد إلى أجل ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أهلك سفراً لا تملِك بعده العودة إلىّ ، فان أبيت إلا البقاء بجانبي حال أهلك بينى وبينك لأنهم قوم شرفاء يضِنون بك وبشرفك أن تلوثهُ امرأة مومس بعارها وآثامها ، فلا تجد لك حينئذٍ بداً من الخضوع لهم ، والنزول على حكمهم ، وهنالك أقف موقف الحيرة واللوعة ، أطلب السبيل اليك فلا أجده ، والسلوّ عنك فلا أستطيعه ، وربما حاولتُ العودة إلى كنف ذلك الشيخ الكريم الذى أحسن إلىّ احساناً كثيراً فطردنى من بين يديه عقاباً لى على خيانتى عهدَه ، وكفرى

بنعمته ، فلا أجد لى بداً من الرجوع الى حياتى الأولى حياة الشرور والآثام ، والشقاء والآلام ، التى أبغضها بغض الأرض للدم ، وهنالك العذاب الدائم ، والويل الطويل

إنى أعلم ياأرمان أنك تحبنى حباً جما ، وأنك ستكابد فى ابتعادك عنى عذاباً كثيراً ، ولكنى أعلم أن لك قلباً شريفاً يحتمل العذاب فى سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلى فانك أقدر منى على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعو لك الله كلما سألته أن يمنحنى الصبر عنك ، ويرزقنى راحة النفس وسكونها من بعدك ، ان يمنحك من ذلك مثل ما يمنحنى ، فلعله يرحمنا جميعاً

فلم يكن له جواب على هذا كله سوى أن نهض من مكانه متضعضعاً متهالكاً ومشى إلى الباب يسوق نفسه سوقاً حتى بلغه فوقف على عتبته والتفت إلى مرغريت وألقى عليها تلك النظرة التى يلقيها المحتضر على أهله فى آخر لحظات حياته وقال لها : الوداع يامرغريت ، ثم مضى ، فما زال شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمة مخبلة واندفعت الى الباب كأنما تريد اللحاق به ، ثم تراجعت ، ثم حاولت ذلك مرة أخرى ، فأدركها رشدها وهداها ، فعادت تبكى وتنتحب وتعول إعوالاً شديداً وتدور فى أنحاء الغرفة دوران المفجوعة الثاكل وتقول : أرجعوه

— ١٦٤ —

إني لا أستطيع فراقه ، أني سأموت من بعده ، فإنها لكذلك
إذ سمعت صرخة عظمى آتية من ناحية الحديقة فخرجت تعدو الى
حيث سمعت الصوت حتى وصلت الى باب المنزل فرأت ارمان
ملقى على عتبته مغشياً عليه فرفعت طرفها الى السماء ، وقالت ليكن
ما أراد القضاء ، ثم ألقت بنفسها عليه ولثمته فى ثغره لثمة هى أول
لثمة ذاقت فيها لذة العيش فى حياتها ، فشعر بها ارمان فاستفاق
وضمها الى صدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شيء من
نعيم الدنيا وهنائها

*
* *

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء مرغريت وعناؤها ،
فقد أبلت من مرضها ، وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها
الا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها ، فاقترحت على ارمان أن
يتركا باريس وضوضاءها ، ومزدحم الحياة فيها ، الى مصيف
يختارانه لنفسهما فى بعض الأماكن الخالية ، فقبل مقترحها ،
وسافرا معاً يفتشان عن المكان الذى يريدان ، حتى بلغا قرية
بوجيفال وهى ضاحية من ضواحى باريس على بعد ساعتين منها
فوجدا من بعض ارباضها منزلاً صغيراً منفرداً على رأس هضبة
عالية فى سفح جبل مخضر تجرى من تحته بحيرة صافية بديعة

كأنما بناه بانيه لهما فاكتريا، ونقلت مرغريت اليه من منزلها فى باريس بعض مايحتاجان اليه من أثاث ومتاع ، ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشاً ناعماً هنيئاً لا تضطرب فى سمائه غيمة ، ولا تمرّ بصفحته غبرة ، ولا يكدره عليهما مكدرٌ من خواطر الشقاء ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين الى قِمة الجبل ، أو منحدرين الى سفحه ، أو راكبين زورقاً صغيراً يسبح بهما على صفحة البحيرة جَيْئة وذُهوبا ، أو جالسين تحت شجرة ثَمراءَ تظلاهما من لفحة الهجير وتضمهما اليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من بُسط النبات الممتدة فى تلك البطحاء الفسيحة يتناجيان ويلهوان بمنظر الجمال الماثل فى الشواطىء والمياه ، والأخاديد والوديان ، والغابات والحرَجات ، والكهوف والصخور ، والغيوم والسحب ، والأضواء فى تشكلها وتلونها ، والظلال فى تحوّلها وتنقلها ، وفى رؤوس الجبال اللاصقة بجلدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفى قطع الصخور المبعثرة على جوانب الغدران كأنها بعض أمواجها ، وفى المعركة التى تقوم فى كل يوم مرتين بين جيشى الأنوار والظلمات فينتصر فى صدر النهار أولهما على ثانيهما ، ثم يُدَال فى آخره لثانيهما على أولهما ، حتى اذا جاء الليل عادا الى منزلهما فنعما فيه بألوان النعيم وضروبه ، ورشفا من كل ثغر من ثغور السعادة رشفةً

تسري مسراها في قلبهما ، حتى تصيب صميمه

مرّ بهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا ان يختلساه من يد الدهر في غفلتــه ثم انتبه لهما بعــد ذلك وويلٌ للسعداء من انتباهه بعد اغفائه فقد نضب أو أوشك أن ينضُب ما كان في يد أرمان من المال وكان في يده الكثير منهُ فكتب الى أبيهِ يطلب اليهِ أن يبعث اليه ما يستعين بهِ على البقاء في باريس أياماً أخرى لأنهُ لا يزال مريضاً شاكياً لا يستطيع السفر ، وكذلك كان يفعل من حين الى حين ، فلم يأته الرد ، فاقلقهُ ذلك قلقاً شديداً ، وظل يختلف الى المدينــة في كل يوم يسأل في فنــدق « تورين » الذي كان يــنزل بهِ قبــل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فـلا يجده فيعود حزيناً منقبضاً حتى اذا وصل الى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه تطلّق وتبسم كأنهُ لا يكتم في نفسه سراً ، ولكنّ عين مرغريت أقدر من ان يُعجزها النفاذ الى اعماق قلبهِ فنفذت اليهِ فعرفت سرّه فكاشفته بهِ وقالت له : لايحزنك شأن المال يا أرمان فان عندي منه مايكفينا للعيش معاً سنين طوالاً ولم تكن صادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها رفده مذ عرف قصتها مع ارمان وعلم أنها خانته وخاست بعهده ، بل كانت مدينةً بمال كثير لبعض تجار الجواهر والثياب ،

بل اصبح دائنوها يتقاضونها دونهم بعد ماعلموا ان الدوق فاطعها ونقص يده منها ، ولـكنها خاطرت بكلمتها مخاطرة دون ان تفكر فى عاقبتها ، فأكبرَ ارمان ذلك وأعظمَهُ ، وأنف منهُ أنفاً شديداً وأبى أن يعيش معها بمال غير ماله ، وعزم أن يسافر الى « نيس » ليأتى منها بالمال الدى يريده ، فأزعجها عزمه هـذا ازعاجاً شديداً وخافت عاقبته ، فجثت بين يديهِ تستعطفه وتسترحمه ، وتبـذل له من ضراعتها ورجائها فى سبيل بقائه معها ، أكثر مما بذلت قبل اليوم فى سبيل رحيله عنها ، حتى أذعن واستقاد ، ورضى بالتى لم يكن يرضى بمثلها لولا لهفة الحب ، وضراعة الدموع ، وقدأضمر فى نفسه أن يتنازل لهـا عن نصيبه فى المـيراث الدى ورثهُ من أُمه مكافأة لها ، ووفاءً بحقها ، فـلم يكن لمرغريت بعد ذلك بدٌّ من أن تمـد يدها الى جواهرها وذخائرها ، فانسأت تبيع منها قطعة بعد أخرى ، لتسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتهـا ، من حيث لايعـلم أرمان ، ومن حيث لا يبـالى هى بذلك ، لعلمها أن السعادة أثمن من كل شىء فى الحياة ، واستمرا على ذلك برهةً طويلة حتى دخل عليهما فى يوم من الأيام فى ساعة من ساعات أنسهما وصفائهما خادم فندق « تورين » الدى كان ينزله ارمان فى باريس وقال له ان والده قد وصـل الساعـة وأنه بانتظره فى الفنـدق

*
* *

قال دوفال لولده : لقد كذبتَ عليَّ كثيراً يا أرمان وما كنتَ قبل اليوم كذّاباً ولا خادعاً ، ورضيتَ لنفسك بحياةٍ كنتَ أضنَّ الناس بنفسك على مثلها من قبل ، ومزّقتَ بيدك ذلك البرقع الجميل من الحياء الذى كان لا يزال مُسْبلاً على وجهك ، وأصبحتَ تتبذّل فى العيش مع امرأة عاهرٍ كلُّ مالها من الشأن عند نفسها وعند الناس جميعًا أنها نُفاية من نُفايات الرجال ، وفضلة من فضلات الفساق ، وفُتات المائدة العامة التى يجلس عليها الناس جميعًا صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا وقم الساعة لتُعِدَّ نفسك للسفر معى الى « نيس » فلست بتاركك بعد اليوم فى هذا البلد ساعةً واحدة

فرفع ارمان رأسه الى أبيهِ وقال لهُ بصوت هادئ مطمئن . لا أستطيع يا أبتاه .

فنظر اليه أبوه نظرةً شزراءً وقال لهُ : وتلك سيئةٌ أخرى ، فقد أصبحتَ لا تعبأ بى ، ولا تبالى بمخالفة أمرى ، من أجل امرأة ساقطة لا شأنَ لها معك إلاَّ أن تعبث بعقلك ، وتَسلبك مالك وشرفك ، وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك

قال يا أبتاه إنها ليست بعابثة ولا خادعه ، ولكنها تحبنى

حبًّا جمًّا لم يحببْهُ أحدٌ من قبلها أحداً ، وأحسبُ أنى إن فارقتُها قتلتُها ، وجنيتُ عليها جنايةً لا يفارقنى الندم عليها حتى الموت

قال ذلك ما يَخدع به أمثالُها أمثالَك ، فليس للنساء العاهرات قلوب يُحبِبنَ بها ، بل لهنَّ ألسنة يَختَتِلْن بها الرجالَ ، ويَسبلْنَها حُجباً بين بعضهم وبعض ، حتى يظن كل واحد منهم أنهُ الأثير عندها ، وصاحب الحُظوة لديها من دون أصحابه جميعًا

قال ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهى لا تحب أحداً غيرى ، بل لا تعرف أحداً سواى ، فهى تعيش عيشةً تشبهُ عيشة النساء الشريفات ، بل أشرفَ من عيشة الكثيرات منهنَّ ، لأن الخليلة التى تخلص لخليلها ، أشرف من الزوجة التى تخون زوجها ، وأخشى إن أنا فارقتُها أن تثور فى نفسها ثورة من ثورات اليأس تدفعها الى تلك الحياة الأولى حياةِ الشر والفساد ، والشقاء والعذاب ، بعد ما استنقذَتْ نفسَها منها

قال وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف فى هذه الحياة اصلاح النساء الفاسدات ؟

قال ذلك خير لهُ من أن تكون وظيفتُهُ افسادَهنَّ ، فان الأشراف فى هذا العصر يفخَرون بافساد النساء الصالحات ، واستدراجهنَّ الى مواطن الفسق والفجور ، واصلاحُ المرأة

الفاسدة ، أدنى الى الشرف من إفساد المرأة الصالحة

قال لقد أصبحتَ كثير الرحمة يا ارمان ؟

قال لِمَ لا أرحم فتاة مريضة مسكينة ليس لها فى الناس من يعولها من ذى قرابة أو ذى رحم ، وقد نزل داؤها من صدرها منزلةً لا يَبرحُها ، ولا يتحلحل عنها ، إلاّ أنه ينام عنها حيناً ، ويستيقظ أحياناً ، فهى تكابد الألمَ مرة ، والخوفَ من الألم أخرى ، ولا عزاءَ لها فى حالتَها إلاّ هذه السعادة التى تتوهمها فى الحب ، وتَرى انها ناعمة بها ، فان فقدتْها فقدتْ كل شىءٍ فى الحياة وعظُم حزنها وبُؤسها ، وثقُلتْ عليها وطأةُ الداء حتى تأتى على البقية الباقية من حياتها ، فدعنى معها يا أبتاه عاماً آخر أو عامين أهوّنْ عليها فيهما شقاءَها ، فربما كان ذلك آخرَ ما قُدّر لها أن تقضيَه من أيامها فى هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك اليك هادئَ القلب ، ساكن الضمير راضياً عن نفسى وعن خطتى ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الندم ، ويُهوّنُ وجدى عليها كلما ذكرتُها انى لم أخنها ، ولم أغدر بعهدها

فأطرق دوفال هنيهة كأنما يعالج فى نفسه همًّا معتلجاً ثم رفع رأسه ونظر إلى ولده نظرةً تشبه نظرةَ العطف والرحمة وقال له : لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بنىّ فحسبى ما كابدتُ من الألم

لفراقك قبل اليوم ، وقد تركتُ أُختك ورائى تندبك وتبكى عليك صباحَها ومساءَها ، وتَحنّ الى لقائك حنينَ الظامئ الى الوِرد ، واعلم أن جميع ما تعتذر بهِ عن نفسك فى هذا الشأن لا يغنى عنك ولا عنى شيئاً يوم يقول الناس كلمتهم التى لابد قائلوها غداً وربما قالها كثير منهم قبل اليوم «إن أرمان دوفال سلالة آل تاليراند يعيش مع امرأة مومس فى بيت واحد» فعُد الى نفسك يا بنى ، واستَلْهِم اللهَ الرشدَ يُلهمك ، ولا تجعل لهواك سبيلاً على عقلك ، ودع هذه الحياة الساقطة التى تحياها لمن ليس له همة مثل همتك ، ولا مجد وبيت مثل مجدك وبيتك ، وانى تاركك الساعةَ وحدك وذاهبٌ عنك لبعض شأنى لتخلو بنفسك برهة تستردُّ اليك فيها ما عزَب عنك من صائب رأيك ، ثم أعود اليك بعد قليل لأسمع منك الكلمة التى أرجو أن تكون شفاءَ نفسى ورَواء غُلتى

ثم تركه ونزل فمشى الى قهوة قريبة من الفندق فكتب فيها لبعض الناس كتاباً ، ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم فى باريس ، فزارهم زيارةً طويلةً ، فلم يَعُدْ الى الفندق حتى أظلّ الليلُ فرأى أرمانَ لا يزال فى مكانهِ ، فسألهُ ماذا رأى ؟ فلم يجبهُ إلا بدموعه تنحدر على خديهِ انحدار القطر ، على أوراق الزهر ،

وجثا بين يديه يستعطفه ويسترحمه، ويكشف له من خبيئة نفسه ما كان يكتمه عنه من قبل ويقول « والله يا أبتاه لو علمت انى أستطيع الحياة بدونها لفارقتها براً بك، وإيثاراً لطاعتك، ولكنى أعلم انى ان فعلت فقد وضعت أمرى فى موضع الغرر[1] وخاطرت بعقلى أو بحياتى مخاطرة لا أعلم ما ذا يكون حظى فيها، وأحسبه أسوأ الحظين، وأنحس النجمين، ولو ان أحداً من قبلى استطاع أن يدفع هواه عن قلبه، أو يمحو ما قدر له فى صحيفة قضائه، من شقاء الحب وبلائه، لفعلت مثله، ولكنه بلاء بليت به لحين أريد لى، فلا رأى لى فى رده، ولا حيلة لى فى اتقائه، ولقد نزلت هذه الفتاة من نفسى منزلة هى منزلة الحياة من الجسم، والغيث من التربة القاحلة، فان كنت لا بد آخذى معك نخذ معك جسماً هامداً لا حراك به، أو نبتة ذاوية لا حياة فيها » فوضع أبوه يده على عاتقه وقال له: قم الآن يابنى واذهب لشأنك، وعد الىّ صباح الغد لأتم حديثى معك، وأرجو أن تكون فى غدك خيراً منك فى أمسك، فخرج محزوناً مكتئباً يمشى مشية الذاهل المشدوه لا يرى ما أمامه، ولا يشعر بما وراءه، حتى رأى عربة بين يديه فركبها الى بوجيفال حتى بلغها، فلم ير

(١) الغرر التعريض للهلكة

مرغريت فى شُرفة البيت تنتظره كعادتها ، فدخل عليها غرفتها فرآها مُكبّةً على مِنضدة بين يديها كأنما هى نائمة أو ذاهلة ، فشعرَتْ بهِ عند دخوله ، فنهضتْ مذعورة متلهفة ، فلمح عند نهوضها كأنّ فى يدها رسالة تضم عليها أصابعها فظنها بعض تلك الرسائل التى كان يرسلها اليها المركيز « جان فيليب » من حين إلى حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأسرياء كان يحبها فى عهدها الأول حباً شديداً ، وينفق عليها أموالا طائلة ، فلما انقطعتْ عنهُ لم ينقطع منها أمله ، فظل يرسل اليها رسائل كثيره يَعرِضُ فيها عليها حبَّهُ وماله ، ويُمنّيها الأمانىَ الحسانَ فى عودتها اليهِ ، واتصال حياتها بحياتهِ ، فكانت تمزقها بمجرد اطلاعها عليها أو على عنوانها ، فلم يحفِل إرمان بذلك وتقدم نحوها فقبلها ، فقالت لهُ ماذا جرى يا ارمان ؟ قال أرادنى أبى على السفر معهُ فأبيتُ ، وبكيتُ بين يديهِ كثيراً فلم أنل منهُ منالاً ، وقد أمرنى بالعودة اليهِ غداً ولا أريد أن أفعل ، لأنى لا أحسَب حظى منهُ فى الغد خيراً من حظى منهُ اليوم ، وقد أصبحَتْ نفسى تحدثنى بعصيانه ، والبقاء هنا على الرغم منهُ ، لأنى أعلم أنى قد تجاوزت السن التى يحتاج فيها الأبناء الى ارشاد الآباء ، ولأنى لا أعرف أحداً بين الناس يستطيع أن يرسم لى خُطة سعادتى فى هذه الحياة كما

أرسمها لنفسي ، ثم أنشأ يقص عليها قصتهُ مع أبيهِ حتى أتمها ونظر اليها فاذا هي مطرقة صامتة ، واذا وجهُها أصفر مربدٌ كأنما قد نفض الموتُ عليهِ غبارَهُ ، فقال ما بكِ يا مرغريت ؟ قالت أشعر بألم شديد في رأسي ، وأُريد الذهاب إلى مخدعي ، فأخذ بيدها اليهِ ، وجرّعها بضع قطرات من الدواء فاستفاقت قليلاً ثم نامت في مخدعها نوماً مشرّداً مذعوراً تتخلله أنّات طويلة ، وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح ، فقالت لهُ أرى لك يا ارمان أن تعود الى أبيك كما أمرك ، وأن تعاود استرحامه واستعطافه ، لعلك بالغ منه اليوم ما عجزت عن بلوغه بالأمس ، وإني لا أكون راضية عن نفسي ، ولا هانئة بحياتي ، ان لم يكن أبوك راضياً عنك ، ولم تزل بهِ حتى أذعن لها وقام الى ثيابه فارتداها ، ثم مشى اليها وضمها الى صدره ضمةً شديدةً كأنما يضن بها أن ينتزعها من بين ذراعيهِ منتزعٌ ، ثم قبلها وقال لها : الى المساء يا مرغريت ، فلم تَرُدَّ عليهِ تحيتَهُ حتى أبعدَ عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : أرجو أن يكون كذلك ! وسقطت على كرسي بين يديها باكية منتحبة

ولم يزل ارمان سائراً في سبيله حتى وصل الى باريس فذهب الى فندق « تورين » فلم يجد أباه هناك ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه يأمره فيها أن ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتاً

طويلاً حتى عاد بعد منتصف النهار وقد رقّت قليلا تلك الغمامة السوداء التى كانت تلبّس وجههُ بالأمس ، فتقدّم اليهِ ارمان فحياه ، فقال له لقد فكرتُ ليلة الأمس فى أمرك كثيراً يا بنى فرأيت أنى قد قسوتُ عليك وغلوت فى أمرك غلوّاً كبيراً ، ونظرت الى مسئالتك بعين أقصر من العين التى كان يجب علىّ أن أنظر بها اليها ، فان للشباب شأناً غير شأن الكهولة والشيخوخة ، وحالاً خاصة بهِ لا يَخرج عن حكمها شريف ولا وضيع ، ولا يختلف فيها سُوقة عن ملِك ، فلك أن تبقى يا بنىّ كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التى تحب كما تريد ، على أن تعِدنى بالعودة الىّ فى اليوم الذى تنقطع فيهِ الصلة بينك وبينها انقطاع حياة أو موت ، فانى ان أمنت عليك شرها ، فلا آمن عليك شر غيرها من النساء ، فاستُطير ارمان فرحاً وسروراً ، وأهوى على يد أبيهِ يقبلها ويبللها بدموعه ويقول : أعِدك بذلك يا أبتاه وعداً لا اخلفهُ ولا أخيس بهِ ، ولك حكمك ما تشاء ان رأيتنى بعد اليوم كاذباً أو حانثاً ، ثم نهض يريد الذهاب فقال له أين تريد ؟ قال أُريد الذهاب الى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ ، وأمسح عن قلبها ما ألمّ بهِ من الروع منذ الأمس ، فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها ارمان ، ثم دار بوجهه ليغالب فى عينيهِ دمعةً كادت تغلبه على

أمره ، ثم التفت اليه وقال له ابق معى اليوم يابنى فربما سافرتُ غداً ولا أعلم بعد ذلك متى أراك ، فبقى معه اليوم كله حتى جاء الليل فاستأذنه فى الذهاب الى بوجيفال فأذن له فحياه وخرج فأتْبَعه نظرَه حتى غاب عن عينيه فانحدرت من جفنه تلك الدمعة التى كان يغالبها من قبل وقال : وارحمتاه لك أيها الولد المسكين

***

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التى يرجوانها فى مستقبل حياتهما وطار بها اليها ليقاسمها إياها حتى دنا من بوجيفال فأدهشه أن رأى البيت مظلماً ساكناً لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يتراءى فيه ظل ، فمشى الى الباب فرآهُ مُرتجاً ، فوضع أذنه على خَصاصه فلم يسمع حركة ، فأخذ يقرعه قرعاً شديداً ويهتف باسم مرغريت مرة ، واسم « بُرُودَنس » أخرى ، فلم يُجبه أحد ، فقال فى نفسه لعلها ذهبت الى بيتها فى باريس لبعض شأنها واستصحبت خادمتها معها ويوشك أن تعود الآن ، فجلس على صخرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مضت هَدْءةٌ من الليل فلم تَعُد ، فحدثته نفسه بالعودة الى باريس للتفتيش عنها فى مظانّ وجودها ، ثمَّ منعه من ذلك خوفهُ أن يَسلك فى ذَهابه طريقاً غير الطريق التى تسلكها فى عودتها ، فاستمر فى مكانه يقعد مرة ،

ويقوم أخرى ، ويقف حينا ويتمشى أحيانا ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر القلق المرتاع إلا حديث خيانتها وغدرها ، ولم يزل فى حيرته واضطرابه حتى رأى جذوة الفجر تدب فى فحمة الظلام فساء ظنه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال فى نفسه ما لمرغريت بد من شأن ومالى بد من المصير اليها ، والنظر فى الشأن الذى شغلها ، وكان القلق والسهر قد أخذا مأخذهما من جسمه ونفسه من حيث لا يشعر ، فمشى فى طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الثمل حتى وصل الى منزل مرغريت وقد علا صدرُ النهار ، فرأى حارسَ المنزل قد استيقظ من نومه ، ووقف بفأسه على جذع شجرة من أشجار الحديقة يشذب أغصانها ، فسأله عن مرغريت ، فقال لهُ إنها حضرت هنا بالأمس فى منصرَف النهار ووراءها خادمتها تمسك بيدها حقيبة كبيرة ، فصعدتْ الى المنزل فلبثت فيه ساعة ثم نزلت وقد لبست ثوبًا من أثواب الولائم فأعطتنى كتابًا وقالت لى إن جاء هنا المسيو أرمان للسؤال عنى فأعطه إياه ، ثم ركبتْ عربتها هى وخادمتها وانصرفت ، قال ألا تعلم أين ذهبت ؟ قال أحسب أنى سمعتُها تقول للحوذى عند ركوبها « الى منزل المركيز جان فيليب » فجمد أرمان فى مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة الموت ،

ومرَّ بخاطره مرورَ البرق ذلك الكتابُ الذي رآه في يد مرغريت بعد عودته اليها من مقابلة أبيه ، فتركه الحارس مكانه وذهب إلى غرفته وعاد اليه بالكتاب ، فتناوله منه بيد مرتجفة ونشره وأمرَّ نظرَهُ عليه إمراراً فأحاط بما فيه للنظرة الأولى ، فارتعد جسمه ارتعاداً شديداً ، وتراجع خطوة أو خطوتين الى باب القصر فألقى ظهره عليه ، وأعاد قراءته فاذا هو مشتمل على هذه الكلمات

« هذا آخر ما بيني وبينك يا أرمان ، فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال بي ، ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فلا سبب عندي إلاَّ أني هكذا أردت لنفسي والسلام »

فعَلِقَ نظرهُ بالكتاب ساعةً لا يرفع طرفهُ عنهُ ، ولا يقرأ منه حرفاً ، كأنما هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارسُ قد عاد إلى شجرته يُشذّب أغصانَها ويتغنى في صعوده اليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامي يعجبهُ لحنها ، ولا يفهم معناها ، فانهُ لكذلك إذ سمع صوتَ جسم ثقيل قد سقط على الأرض ، فرمى بفأسه وهرع إلى ناحية الصوت ، فرأى أرمانَ صريعاً معفراً على عتبة الباب ، ففزع فزعاً شديداً وظنَّها الصرعةَ الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع ما بقي من دقات قلبه ، فاطمأن قليلاً وعمد إلى جَرّة بين يديه فأخذ ينضح بمائها وجههُ ويدلك

براحة يده صدره وصدغيه ، حتى استفاق بعد قليل ، ففتح عينيه فرأى الحارس جالساً بجانبه ، ورأى الكتاب لا يزال فى يده ، فدار بعينيه حول نفسه فمرّت بخاطره فى الحال ذكرى مصرعه القديم فى هذا المكان عينه منذ خمسة عشر شهراً يوم ألقت مرغريت بنفسها عليه ، ورسمت على ثغره أول قبلة من قبل الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : ما أبعد اليوم من الأمس ، وأنشأ يبكى بكاء الطفل الذى حيل بينه وبين ثدى أمه ، حتى بكى الحارس لبكائه وأقبل عليه يعزيه عن مصابه ، ويهونه عليه ، حتى هدأ قليلاً ، فأمره أن يستدعى له عربة ففعل ، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها فركب وقال للسائق « إلى فندق تورين » فسارت به العربة اليه حتى إذا لم يبقَ بينه وبينه إلا منعطف واحد مرّت بجانبه عربة فخمة مرور البرق الخاطف تحمل رجلاً وامرأة لم يتبينهما للنظرة الأولى ثم راجع صورتهما فى خياله فاذا هما جان فيليب ومرغريت ، وكانت مركبته قد وصلت به الى الفندق فدخل على أبيه هائماً مختبلاً فقال مادهاك يا بنى ؟ قال « قد خانتنى يا أبتاه » قال ذلك ما أنذرتك به يا أرمان من قبل

ثم انقضى النهار وجاء الليل فقضاه أرمان ساهراً فى مخدعه يراجع فهرس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض فى

نفسه جميع أطوارها وشؤونها ، فلم تبقَ حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالأمس حسنة من حسنات الإخلاص والوفاء ، إلا رآها اليوم سيئة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل فى مراجعته إلى الأمس واليوم الذى قبله ، فذكر عدم انتظارها إياه فى شرفة البيت كعادتها يوم عاد اليها من مقابلة أبيه ، وشدةَ احتفاظها بكتاب المركيز فى يدها عند ما دخل عليها غرفتَها وضنّها به ضناً شديداً ولم تكن تفعل ذلك من قبل ، وإعراضَها عن التبسّط معهُ في الحديث بعد ما قص عليها قصته مع أبيه ، وزعْمَها انها مريضة خائرة لا تستطيع البقاء معه ، وإلحاحَها عليه فى صباح اليوم الثانى إلحاحاً شديداً فى العودة إلى مقابلة أبيه واستعطافهِ ، وقولَها إنها لا تكون راضية عن نفسها ، ولا هانئة بسعادتها ، اذا لم يكن أبوه راضياً عنهُ ، فاستنتج من هذا كله أنها مذ شعَرتْ بفراغ يده من المال ، وأن أباه إمّا أن يحول بينهُ وبينها وإمّا أن يقتّر عليه الرزق تقتيراً ، ملّتهُ واجتوتهُ ، وفكرت فى طريق الخلاص منهُ ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتاها بكتاب المركيز فكان هو طريق خلاصها

ولم يزل هائماً ما شاء فى تصوراته وأوهامه حتى غلبتْهُ عيناه

فهجع قليلاً ، ثم استيقظ فى الصباح فدخل على أبيه فى مخدعه وقال له : لى عندك أمنية يا أبتاه لا أريد غيرها ، وأريد أن أشتريها منك بخضوعى لك ونزولى على حكمك مدى الدهر فيما سرّنى أو ساءنى ، فهل لك أن تبلّغنيها ؟ قال وما هى ؟ قال أريد أن تعطينى الساعة خمسة عشر ألف فرنك ، قال وما تريد منها ؟ قال أحب أن أستأثر بهذا السر لنفسى حتى من دونك ، فنظر اليه أبوه نظرةَ الملمّ بما فى نفسه ولم يعاوده وأعطاهُ صكوكاً بالمال الذى أراده فأخذها وأرسلها إلى مرغريت ، وأرسل معها كتاباً طويلاً ختمهُ بهذه الكلمة « أمّا وقد عرفتُ أننى كنت أعيش مع امرأة عاهر مأجورة لا عهد لها ولا ذمام فها هى أجرة لياليكِ الماضية مرسلة اليكِ »

ثم خرج ليُعدَّ نفسه للسفر فمضى اليوم كله خارج الفندق ثم عاد اليه فى دبُر النهار فوجد فيه كتاباً باسمه ففض ختامه فاذا الأوراق التى أرسلها الى مرغريت عائدةٌ اليه كما هى وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها اليها مرة أخرى ، فمنعه أبوهُ من ذلك ، وقال له قد وعدتنى ألاّ تخالفنى فى أمر فلا بدَّ لك من الاذعان ، فأذعن ثم سافرا معاً تلك الليلة الى نيس

وكذلك قضى الله أن يفترق ذانك الصديقان الوفيان ،

والعاشقان المخلصان ، فعاد الفتى الى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة الى حياتها الأولى التى كانت تأباها الإباءَ كله ، وتخافها الخوفَ الشديد ، وفى نفس كل منهما من الوجد بصاحبه ، والحسرة عليه ، ما لا تُبليه الأيام ، ولا تنتقص منه السنون والأعوام

***

الاشقياء فى الدنيا كثيرٌ وأعظمهم شقاءً ذلك الحزين الصامت الذى قضت عليهِ ضرورة من ضرورات الحيـاة ، أو أزمة من أزمات الخوف أو الرجاء ، أن يهبط بآلامـه وأحزانه الى قَرارة نفسه فيودعهَا هناك ، ثم يُغلقَ دونها باباً من الصمت والكتمان ، ثم يصعدَ الى الناس باشّ الوجه ، باسم الثغر ، متطلّقاً متهللا ، كأنه لا يحمل بين جنبيهِ همًّا ولا كمدًا

ذلك كان شأن مرغريت بعد عودتها الى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة الذى تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياةٌ ضاحكة لاعبة ، وثّابة طائرة ، تضىء المجامع والمحافل ، وتملأ الأنظار والأسماع ، فاذا ضمها مخدعها ، وخلا لهـا وجهُ الليل ، مرّت أمامَ عينيها صورُ تلك الساعات السعيدة التى قضتها بجانب أرمان ، ثم ذَكرَتْ أنها قد أَفلتتْ من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بُعدَ

الشمس عن يد متناوِلها ، وأنهـا قد أصبحت تعيش بين أقوام لا تعرفهم ، ولا تجد فى نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجدلها بدامن التحبب اليهم ، واللصوق بهم ، والتجمل لهم بما يريدون ويشتهون ، فتقبّل الأفواهَ التى لا تشتـهيها ، وتعتنق القامات التى لا تُطيق رؤيتَها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يحرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها ، وتضحك ضَحِكات السرور من قلبٍ باكٍ ، وتُنشد أناشيد الهناء من فؤاد محترق ، فـكأنها فى يد النـاس العودُ فى يد المغنّى ، يُقطّع أوتارَه ضرباً ، ليَطرَبَ بنغماتِه ، أو الزهرةُ فى يد المقتطِف ، يعصر أوراقها عصراً ، لينعَمَ بشذاها ، فتهيجُها ذِكرى ذلك الماضى السعيد وهذا الحاضر الشقىّ . فتُطلقُ السبيلَ لزفراتها وعبراتها ، يَصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشْتفىَ نفسُها فتقوم إلى خِزانة ملابسها فتستخرج منها صورةً تضعها بين سَحْرها ونحرها ، ثم تأوى الى مضجَعها فتجد بَرد الراحةِ فى صدرها ، لأنهـا صورة أرمان

ولم تزل تكابد من شقاء هذه الحياة الساقطة وآلامها مالا طاقة لمثلها باحتمال مثله حتى استيقظ فى صدرها داؤها القـديم بعد ما نام عنها حيناً من الدهر فهزَل جسمها ، وشَحَب لونهـا ، وغاض

ماء ابتساماتها ، وانطفأ شعاع نظراتها ، وشغلها شأنُ نفسها عن شأن المركيز فلم يلبث أن ملّها وفارقها ، واستبدل بها خيراً منها ، ثم اختلفَ اليها من بعده الأخلاّء فكان شأنهم معها كشأنه ، لا يلبث الواحد منهم أن يعرفها حتى يهجرها ، فكَسدَت سِلعتها فى سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم فى لثم موطئ قدميها ، وخلت منها المجامع والمحافل ، ثم خلت من ذكرها وحديثها ، وأعوزها المال إعوازاً شديداً فمدت يدها الى ما كان باقياً عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يفِ بدينها ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماضين فأرسل اليها القليلُ منهم القليلَ منها فلم يُغنِ عنها شيئاً ، واختلفت اليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد مافيها ، فدافعتهم عنها حيناً ثم عجزت ، فحجزوا جميع مقتنياتها وذخائرها ، وأثاثَ بيتها ورياشَهُ ، ولؤُموا فى مقاضاتها لؤماً ضاعف حزنَها ومرضَها ، وقضى على بقية ما كانت تضمره فى نفسها من الأمل فى الحياة والسعادة فيها . فنسيَتْ العالم خيرَه وشرَّه . والحياةَ سعادتَها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا في أمر واحد تقوم وتقعد به ليلَها ونهارها ، وهو أن ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ثم تذهب إلى ربها

ولم تكن قد كتبت إليهِ قبل اليوم كلمةً واحدة مذفارقها ولا

كَتبَ إليها فنهضت تحامل على نفسها حتى وصلت إلى مِنضدتها فكتبت إليهِ هذا الكتاب

« تعال الىَّ يا أرمان راضياً كنتَ أو غاضباً ، فانني مريضةٌ مُشْرِفةٌ ، وأحب أن أراك قبل موتى لأفضيَ إليك بسر الذنب الذى أذنبتهُ اليك فيما مضى ، والذى لا تزال واجداً علىَّ من أجله حتى اليوم ، فلعلك تعفو عنى فى ساعتى الأخيره فيكون عفوك ورضاك هو كل ما أتزوَّدهُ من هذه الحياه لقبرى ، واذكرْ يا أرمان أن أول عاطفة جمعتْ بينى وبينك ، وألّفت ما بين قلبى وقلبك ، كانت عاطفةَ الرحمة والشفقة ، فها هى الفتاة المريضة المسكينة التى رحمتَها بالأمس وعطفتَ عليها قبل أن تحبها ، تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها وإن تكن قد سلوتَها ، أما كتابك الذى كتبتهُ الىّ قبل سفرك فقد اغتفرت لك كل ما فيهِ حتى قولك انى كنت كاذبة فى حبك . طامعة فى مالك ، لأنى أعلم أن المرأة التى يكذبُ الناسَ فى حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من يصدقها اذا صدقَتْ فيهِ ، حتى الذى أحبتهُ ، وعدلٌ من الله كل ماصنع »

ثمّ لبثت تنتظر حضوره أياماً طوالاً فلم يأتها فأحزنها ذلك حزناً شديداً ، وساء ظنها بهِ ووقع فى نفسها أنهُ قد سلاها واطَّرحها . وأصبح لا يعبأ بها ، ولا يبالى بحياتها أو موتها ، وسعادتها أو

شقائها ، وكانت مخطئة فيما ظنت ، فان أرمان لم يطّلع على الكتاب الذى أرسلتهُ اليهِ ، لأنه مذ فارقها فى العام الماضى وسافر الى نيس لم يستطع البقاء فيها إلاَّ أياماً قلائل ثم مَلكهُ الضجر وأحاطت بهِ الوحشة ، وضاقت فى وجههِ مذاهب السلوى ، فاستأذن من أبيهِ أن يسافر الى بعض بلاد الشرق ترويحاً عن نفسهِ ، وتفريجاً من كربتهِ ، فأذن له . فسافر الى الاسكندرية فأقام فيها بضعة أشهر كان يكاتب أباه فيها ثم تركها وأخذ يتنقل فى أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطير بهِ الضجر الى غيره ، فانقطعت رسائله عن أبيه فأصبح لا يعلم مكان وجوده ، فلما أرسلت مرغريت اليهِ كتابها فى نيس قرأه أبوه وحفظه عندهُ ولم يستطع أن يرسله اليهِ ، ومرغريت لا تعلم بشىء من ذلك ، فحزنت لخيبة أملها حزناً شديداً ، ودبّ اليأس فى قلبها دبيب الموت فى الحياة ، ووقع فى نفسها انها ستخرج من الدنيا فارغة اليد من كل شىء حتى من هذه الأمنية التى بقيت فى يدها من بين جميع آمالها الضائعة ، فتنكّر شأنها ، واستحالت حالها ، ولجأت الى صمت طويل لا تقول فيهِ خيراً ولا شرًّا ، وأصبحت تنظر الى نفسها والى ما يحيط بها من الاشياء كأنها تنظر الى شىء تنكره ولا تعرفه ، فربما دخل عليها طبيبها وهى فى أشد حالات ألمها فلا تشكو له ألماً ،

أو سمعتْ ضوضاء الدائنين وصياحهم فى فناء المنزل فلا تسأل ماذا يريدون ؛ وكانت اذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركبت عربتها الى بوجيفال فزارت البيت الذى قضت فيهِ أيام سعادتها الذاهبة ، وكان لا يزال باقياً على الصورة التى تركته عليها يوم فارقته ، ومرّت بغرفه وقاعاته ، وجلست فى كل مكان كانت تجلس فيهِ مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها معها ، وقبّلت جميع آثاره وبقاياه ، ولثمت الكأس التى كان يشرب بها ، والزهرة التى كان يحبها ، والقلم الذى كان يكتب بهِ ، والكتاب الذى كان يقرأ فيهِ ، فاذا نال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها ، فربما طار بها خيالها الى ذلك العهد القديم ، فتمثّل لها أن أرمان جالس تحت قدميها يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته فى نيس ، أو يبثها ما يضمره لها فى نفسهِ من الوجد والغرام ، فتبتسم لحديثه ابتسام السعيد الهانئ ، وتستشعر فى نفسها لذة لا يشعر بمثلها إلاّ المتقون فى جنات النعيم ، ثم تفتح عينيها فلا ترى أمامها غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانفراد ، فتبكى ماشاء الله أن تفعل ، ثم تعود الى بيتها فى باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضدتها وتناجي أرمان فى مذكراتها بجميع ما تحدثها بهِ نفسها ، كأنهُ حاضر بين يديها يراها ويسمعها .

***

مذكرات مرغريت

١٥ دسمبر سنة ١٨٥٠

ارمان

لَم تكتبْ إلىَّ لم وتأتنى ، كأنما ظننت أنى أُريد أن أستعيد معك عهدىَ الماضى ، وأين أنا من ذلك العهد ، فلو رأيتنى لرأيتَ امرأة ذاهبة مُدْبرة لا تصلح لشأن من شؤون الحياة ، ولم يبق فيها من صورتها الماضية إلاّ كما بقى من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفَت الريحُ بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك أن أراك بجانب فراشى فى ساعتى الأخيرة لأعتذر لك عن ذنبى الذى أذنبتهُ إليك ، ثم أنظر اليك نظرةَ وَداع أُغمض عليها جفنىّ وأذهب بها الى قبرى

ما أنا بخائنةٍ ياأرمان ولا خادعةٍ ، فان الرسالة التى رأيتَها فى يدى يوم عدتَ إلىَّ من مقابلة أبيك ليست رسالة المركيز كما ظننتَ ، بل رسالة أبيك نفسه وصلتْ إلىَّ منهُ قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة ، وهذا نصها الذى لا يزال عالقاً بذهنى حتى الساعة

« سيدتى

أريد أن أقابلك غداً فى منزلك فى الساعة العاشرة صباحاً فى شأن خاص بى وبك ، وأريد ألاّ يكون أرمان حاضراً تلك المقابلة ، ولا عالماً بها ، ولا بأنى أرسلت هذه الرسالة اليك ، ولى من حسن الرأى فيك ما يُطْمعنى فى أن يكون ما سألتك إياه سرًّا بينى وبينك حتى الملتقى والسلام دوفال »

فلما قرأتُها علِمتُ ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرتُ بما وراءها ، بل علمت مادار بينهُ وبينك من الحديث ، وأنك امتنعتَ عليهِ حتى يئس منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابى ، فحدثتنى نفسى أن أرفض مقابلتهُ وأن أكاشفك بكل شيء . ثم استحييتُ من ذلك ، وأكبرتُ فى نفسى أن نعتمد علىّ رجلٌ شريف كأبيك فى كتمان سر صغير كهذا السر فلا يجدنى عند ظنه ، وطمعتُ فى أن أنال منهُ عند المقابلة ما يطمع فى أن يناله منى ، فكتمتُك أمر الرسالةَ ، وكتمتُك ما فى نفسى منها ، ولم أكن كاذبة فى شَكاتى وألمى حينما قلت لك فى تلك الليلة إننى لا أستطيع البقاء بجانبك وسألتُك أن تَقودنى الى مخدعى ، فقد قضيت فى فراشى بعد ما فارقتك ليلةً لم أقضِ مثلها فى جميع ما مرَّ بى من ليالى الهموم والأحزان . حتى أصبح الصباح فألححتُ عليك أن تذهب لمقابلة

أبيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبتَ إليهِ لا تراه ، ولا تنتفع بمقابلته إن رأيتهُ ، ولكنى خفت أن يزورنى فيراك عندى فأصغُرَ فى عينه ولا أشدّ علىَّ من ذلك ، وما هى إلاّ لحظات قليلة حتى وصل إلى بوجيفال فى الموعد الذى ضربهُ فى كتابه فاستأذنَ علىّ فأذنتُ له فدخل فرأيتُ فى عينيه جمرةً من الغضب تلتهب التهاباً فلم أحفِل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يحيّنى بيده ولا بلسانه ، ولم يدنُ من مكانى خطوة واحدة ، وكان أول ما استقبلنى بهِ قوله « ماذا تريدين أن تصنعى بولدى أيتها السيدة ؟ » وظلَّ ناظراً إلىّ نظراً جامداً ساكناً لا يَطرف ولا يختلج ، فعجبت لمدخله الغريب ، ونظراته المترفّعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضتُ فى نفسى امتعاضاً شديداً حتى كدتُ أقول له ولا أكتمُك ذلك ، تذَكَّرْ يا سيدى أنك فى منزلى وأننى لم أدعُك إلى زيارتى ، بل أنت الذى دعوت نفسك بنفسك ، ثم ذكرتُ مكانَه منك فأمسكت عن كل شىء حتى عن الجواب على سؤاله ، فمشى يضرب الأرض بعصاه وقدمه حتى دنا منى وألقى علىّ تلك النظرة التى اعتاد الأشراف المترفّعون أن يُلقوها فى طريقهم على وجوه النساء العاهرات وقال لى « لقد أنفق ولدى عليك جميع ما كان بيده من المال ، وكان فى يده الكثير منهُ ثم جميعَ ما أرسلتهُ إليهِ بعد ذلك ،

وقد أرسلتُ إليهِ فوق طاقتى ، فلم يبق فى استطاعته أن يُمِدّكِ بأكثر مما أمَدكِ ، ولا فى استطاعتى أن أستنزل له من السماء ذهباً يُمطره عليك ، فدعيه وشأنهُ ، فالبلد مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم اليهم . أو لا يحتاجون الى أنفسهم ، أما أنا فانى حاجة الى ولدى ، لأنى لم أرزَق ولداً سواه ، ومن كان بيده هذه الثروة من الجمال التى تملكينها لا يضيق بهِ مذهب من مذاهب العيش ، ولا يلتوى عليهِ مأرب من مآرب الحياة » فمشت كلماته فى نفسى مشى الحمّى فى عظام المحموم ، وخُيّل إلى أن هذا الماثلَ أمامى لا يحدثنى ، وإنما يجرعنى السم بيده تجريعاً ، وشعرتُ بذِلة لم أشعر بمثلها فى يوم من أيام حياتى ، إلا أننى تجلدتُ واستمسكتُ وردَدتُ نفسى على مكروهها . وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازجه غضب ولا نزق : لا يا سيدى إنى أحب ولدك ولا أطمع فيهِ . ولو كان ما يَعنينى منهُ الطمع فى ماله لفارقتهُ منذ ثلاثة شهور ، أى مذ خلَت يدهُ من المال . وأصبح لا يجد السبيل إليهِ . بل لَفارقتُهُ قبل ذلك . لأن الذين لا يزالون يساوموننى فى نفسى من أشراف هذا البلد ونبلائهِ منذ اتصلتُ بهِ حتى اليوم أفضل منهُ حالاً وأكثر رغداً . على أن ولدك لم ينفق علىّ من هذا المال الذى تذكرهُ إلا النزرَ القليل ، وربما أنفق باقيَه على نفسه ، ولو

استطعتُ أن أرفض ذلك القليل وآباه لفعلت ، ولكنى كنت أضِنّ بهِ أن يداخل نفسَه ما يَريبها أو يؤلمها فقبلت منهُ هداياه الصغيرة التى كان يقدمها إلىّ من حين إلى حين ، إرعاءً عليهِ ، وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدى لأصبحتُ غنية موفورة ، لا أحمل همًّا من هموم العيش ، ولا أُعانى من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم ، فاننى لو تبينتَ أمرى امرأة فقيرة مُعْوزة لا أملك من متاع الدنيا إلاّ حلاى ومركبتى وأثاث بيتى ، وليتها كانت خالصة لى ، فقد امتدت يد الضرورة اليها منذ عهد قريب ، فأصبح الكثير منها سِلعة فى يد التجار أو رهينة فى يد المرابين ، ولا أعلم ما يأتى بهِ الغد ، وإن أبيتَ إلاّ أن تعرف ذلك بنفسك فسأُطلعك على ما كتمته عن الناس جميعاً حتى عن ولدك ، ثمّ قمت إلى خزانة أوراقى فجئتهُ منها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعتُ من جواهرى وخيولى وأثاث بيتى ورهنِ ما رهنتُ منها ، فظل يقلّبها بين يديه ساعة ، ويتأمل فى تواريخها طويلاً ، ثم طواها وأعادها إلىّ مطرقاً صامتاً لا يقول شيئاً ، ومد يده إلى كرسى بين يديهِ فاجتذبهُ اليهِ وجلس عليهِ معتمداً برأسه على عصاه ، وقد هدأتْ فى نفسه تلك الثورةُ التى كانت تعتلج فيها وقت دخوله ، وطارت

عن وجهه تلك الغبرة السوداء التي كانت تظلله من قبل ، فعدت بإلى حديثي معه أقول : على أنني يا سيدي غير شاكية ولا ناقمة ، فقد مر بي من نوب الأيام وأرزائها ما محا من نفسي كل شهوة من شهوات الحياة ، وأنساني جميع لذائذ الدنيا ومفاخرها ، فأصبحت لا أبالي بما تأتي به الأيام وما أتت ، وسواء لدي الفقر والغنى ، والحلْيُ والعطَل ، وسُكنى القصر وسُكنى الكوخ ، وركوب المركبة وركوبُ النعل . وكل ما أرجوه من حياتي وأضرع الى الله واليك فيه أن أرى أرمان بجانبي يقاسمني هم الحياة وبؤسها ، ويعينني على شدتها ولأوائها ، حتى يقضيَ الله في أمري بما هو قاض . فان كان في الأجل فسحة قضيتُها في شكرك وحمدك والإخلاص لك في سري وعلني ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به في ساعتي الأخيرة أن أدعوَ لك الله تعالى ضارعةً مبتهلةً أن يبارك لك في نفسك وفي أهلك ، وأن يُسبل ستره الضافي عليك في حاضرك ومستقبلك

ثم جثوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت في تلك الساعة عن أن أملك من دموعي ما كنت مالكة من قبل ، فظللت أبكي وأقول

رحماك يا مولاي إنني امرأة بائسة مسكينة قد قضت عليَّ

بعض نكبات العيش فى مبدإ حياتى أن أقف على رأس تلك الهوة التى يقف على رأسها النساء الجائعات فسقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردتُ نفسىَ على الرضا بتلك الحياة التى قدَّرها الله لى فلم أستطع ، فأصبحتُ فى منزلةٍ بين المنزلتين ، لا أنا شريفة أنعَم بعيش النساء الشريفات ، ولا ميّتةُ القلب أسعد سعادةَ الفتيات الساقطات ، وقد وجدتُ فى ولدك الرجلَ الوحيد الذى أحبنى لنفسى أكثر مما أحبنى لنفسه ، ومنحنى من وده وإخلاصه ما ضنَّ به علىَّ الناس جميعاً ، فأنستُ به أنساً أنسانى سقوطى وعارى ، وحبب إلىَّ الحياةَ بعد ما أبغضتها وبَرِمتُ بها ، وكدت أقضى على نفسى بالخلاص منها ، فلا تُحرمنى جوارَه . ولا تفرق بينى وبينهُ ، فانك إن فعلت أشقيتَنى وبرّحتَ بى ، وملأت حياتى همًّا وكمداً ، وأنت أجل من أن ترضى لنفسك بأن تبنى سعادتَك وهناءك على شقاء امرأة مسكينة مثلى

ماذا يكون مصيرى غداً إن أصبحت وحيدة منقطعة فى هذا العالم لا صديق لى فيه ولا معين ؟ أأعود إلى حياتى التى أبغضها وأخشاها فأعودَ إلى جرائمى وآثامى ؟ أم أقتل نفسى بيدى فراراً من شقاء الدنيا وبلائها فأختمَ حياتى بأقبح ما ختَم امرؤ به حياتَه ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، فامدد الىَّ يدك

البيضاء وانقذنى من هذه الهوة العميقة التى لا يستطيع أحد أن ينقذنى منها سواك

أنا أعلم أنك فى حاجة الى ولدك ، وأنك أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكنى أعلم أنك شفوق رحيم لاتأبى أن تتصدق على امرأة مريضة يائسة مثلى بساعات من السعادة تَتعلل بها فى مرضها الذى تكابده حتى يوافيَها أجلها

لا أسألك ياسيدى مالاً ولا نشباً ، ولا عرضاً من أعراض الحياة ، بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معى ، فان فى بقائه بقاءَ حياتى وسعادتى ، فتصدقْ بهما علىَّ إنك من المحسنين

وهنا شعرتُ كأنه يتحرَّك فى كرسيه تخفق قلبى خفقاناً شديداً ثم رفع رأسه ونظر الىَّ نظرةً أبردَ ناراً ، وأقصرَ شعاعاً ، من نظرته الأُولى وقال ومن أين تعيشان ؟

قلت عندى بقية من جواهرى وحلاى سأبيعها وأعيش بثمنها معه فى زاوية من زوايا باريس . عيشَ الفقراء المقِلّين . لا يرانا أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبُنا الحب سعادةً نَغْنَى بها عن كل سعادة فى هذا العالم وهناء

قال ذلك هو الشقاء بعينه ، فان الحب نباتٌ ظِلِّيٌّ تقتله أشعة الشمس الحارة ، وكل سعادة فى العالم غير مستمَدة من سعادة

المال أو لاجنةٍ الى ظلالها فهى كاذبة لا وجود لها الاَّ فى الأدمغة والرءوس

أنتما اليوم سعيدان لأن فى يدكما مالاً تعيشان بهِ ، ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهضبة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ، فاذا خلَت يدُكما من المال ، وحُرمتما هذا النعيم الذى تنعمان بهِ شقيتما وشغلكما شأن نفسكما عن شأن الحب ولذاته ، وسرى الى نفسيكما الضجرُ والملل ، وربما امتدت تلك السآمة بينكما الى أبعد غايتها

إِن للحب فنونا من الجنون ، وأقبح فنونهِ أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا تغيره حوادث الأيام ، ولا تنال منهُ الصروفُ والغِيَر ، ولو عقَلا لعلما أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها الطارئة ، تاتى بهِ شهوة ، وتذهب بهِ أخرى ، ولا يَذهبُ بهِ مثلُ الفاقة إِذا اشتدَّت واستحكمت حلقاتها ، فإِن النفس تطلب حياتَها وبقاءها ، قبل أن تطلب لذائذَها وشهواتِها

أنا أعلمُ من شأن ولدى يا سيدتى ما لا تعلمين ، وأعلمُ انه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة النكداء التى تظنّين ، وهو فتى فقير لا يملك من الدنيا الاَّ قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا تغنى عنه ولا عنك شيئًا ، وما أنا بذى ثروة طائلة أستطيع

أن أحفظَ لهُ بها زمناً طويلاً هـذا العيشَ السعيدَ الرغَدَ الذى يعيشه اليوم فى باريس ، فلم يَبق بين يديه إلاَّ أن يعيش بمالِكِ ، وهو ما لا أرضاه له ولا يرضاه لنفسه ، واسمحى لى يا سيدتى أن أقول لك : إن جميع مصائب الدنيا ورزاياها أهون علىَّ وعليهِ من أن يقولَ الناسُ إنَّ خليـلة أرمان دوفال قد باعت جواهرها وحلاها التى أهداها إيَّاها عشاقها الماضون لتُنفق ثمنَها عليهِ

سامحينى يا بُنيتى ، واغتفر لى حدتى وخشونتى ، فإنَّ كثيراً جداً على والدٍ شيخ ضعيف مثلى أن يرى ولدَه الذى وضع فيهِ كل آماله وآمال بيته يهوِى أمام عينيه فى هذه الهوة السحيقة التى لا قرارِ لها دون أن يطير قلبُه خوفاً وهلعاً

إنهُ منذ عرفك نسينى ونسى أخته ، فلا يذكرنى ولا يذكرها ، وقد مرضتُ منـذ شهور مرضاً مُشرِفاً فكتبتُ اليهِ أن يأتى ليعودنى فلم يفعل ، ولم يردّ علىَّ كتابى ، أى إننى كنت على وشك أن أموت ولا أراه ، ولو تمَّ ذلك لذهبتُ إلى قبرى بحسرةٍ لم يحمل مثلَها فى صدره راحلٌ عن الدنيا من قبلى

أنتِ صادقة يا سـيدتى فى قولك إنهُ لم يُنفق عليكِ جميع ما كان بيده من المال ، لأنى علمتُ بالأمس أنهُ قامرَ منذ عهد قريب ، وخسر فى مقامرته كثيراً كما علمت أنك لا تعلمين شيئاً

من ذلك ، فما يؤمنني إن أنا تركته في هذا البلد ألاَّ يستمرَّ في هذه الغَواية الجديدة التي خطا الخطوات الأولى في طريقها ، وألاَّ يخسرَ في بعض مواقفهِ خسارةً عظمى لا أجد لي بدًّا من أن آخذ بيده فيها ، فأقدّمَ اليهِ ذخر شيخوختي ، ومهر ابنتي ، فنهلك نحن الثلاثة في يوم واحد

من لك يا بُنية أنهُ ان طال عهده بك لا يملُّكِ ، ولا تمتدّ عينهُ الى امرأةٍ سواكِ ، فتكونَ فجيعتُكِ فيهِ غداً شراًّ من فجيعتكِ فيهِ اليوم ؟

ومن له أنك لا تضيقين بعيشة الوحشة والوحدة ذرعاً فتحنّين إلى حياتك الأولى حياة الأُنس والاجتماع ، والغبطة والسرور ، وهو فتى غيور مستطار فربما أنِفتْ نفسهُ أن يزاحمه فيك مزاحم ، وربما امتدت يدهُ الى ذلك الذى يزاحمهُ بشرٍّ فتنازلا فأصابتهُ من يد مُنازله ضربة تقضي على حياته وتفجعني فيه ؟

كيف يكون موقفك يا سيدتي غداً إن نفذ فيه هذا السهم من القضاء أمام هذا الأب الثاكل المسكين اذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون آلامُ نفسكِ ولواعجُها أمامَ مشهد بكائه ونحيبه ؟

ثم ارتعش ارتعاشاً شديداً ، وظلَّ نظره حائراً مضطرباً ، كأنما

كان يُخيّل اليه أنه يرى أمام عينيه ذلك المنظر الذى يتحدث عنهُ ثم سكن قليلاً و نظر الىَّ نظرةً هادئة مملوءة عطفاً وحناناً وأنشأ يقول :

مرغريت : أنتِ أعظمُ مما كنت أظن ، وأفضل كثيراً من هؤلاء النساء اللواتى يزعمنَ أنك واحدة منهنَّ ، وقد وجدتُ فيك من فضائل النفس ومزاياها مالم أجده الاَّ قليلاً فى أفذاد الرجال ، وأقلَّ من القليـل فى فُضليات النساء ، ولو قُسِّم الشرفُ بين الناس على مقدار ما تشتمل عليه نفوسهم من الفضائل لكان نصيبك منهُ من أوفر الأنصبة وأوفاها

لا أنسى لك يا مرغريت ما دمتُ حياًّ كِتمانَكِ أمر الكتاب الذى أرسلتهُ اليكِ ، واحتفاظكِ بسرّه فى ساعـةٍ تنفرج فيها الصدور عن مكنوناتها ، ولا سكونَكِ وإغضاءكِ وأنت فى منزلك ، وموضع أمرك ونهيك ، أمام حدتى وخشونتى وجنون غضبى ، ولا بذلَكِ ما بذلتِ من ذات نفسك وذات يدكِ لولدى من حيث لا يعلم ، وفاءً له ، وإبقاءً على عزة نفسه وكرامتها

لقد كانت ضحيتُكِ التى قدمتها لولدى بالأمس عظيمة جداً ، واليوم جئت اليك أطلب منك أن تقدمى ضحية أعظم منها لابنتى ، ولا مُعتمَدَ لى أعتمد عليه فى تلبية رجائى عندك إلاَّ شرف نفسك وفضيلتها

لقد تركتُ سوسانَ يا مرغريت ورائى تتقلب على فراش المرض ، وتكابد منهُ فوق ما يحتمل جسمها الناشىء الغضّ ، لأن خطيبها الذى تحبهُ حباً جمًّا قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلاّ الظنَّ والتقديرَ ، حتى سهرت بجانب فراشها ليلةً كانت الحمّى فيها قد نالت منها منالاً عظيماً ، ووصلتْ بها الى درجة الخَبل والهذيان ، فسمعتُها تَهتف باسم خطيبها مراتٍ كثيرة ، وتبكى كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيقة ، فعلمتُ موضع دائها ، وذهبت فى اليوم الثانى الى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولدَه من أمر ابنتى ، وقَطَعَهُ عن زيارتها ، فذكر لى سبباً غريباً لكِ فيه يا سيدتى بعضُ الشأن ، فإن أذنْت لى حدثتُك حديثَه

نخفق قلبي خفقاناً شديداً ، وأحسست بالشرّ يدنو منى رويداً رويداً ، الاّ أننى تماسكت وقلت له نعم آذَن لك يا سيدى

قال لقد أجابنى الرجل على سؤالى بقوله « إن أسرتى أسرةٌ شريفة لا تصاهر إلاّ أسرةً شريفة مثلها من جميع وجوهها ، وقد عرفتُ أسلوب المعيشة السافلة التى يعيشها ولدكَ فى باريس ، وأنه يعاشر منذ عهد طويل امرأةً مومساً معروفة هناك معاشرةَ تَهتُّكٍ وتَبَذُّلٍ يَشهدها الناس جميعاً ، ولا أسمح لنفسى أن يكون

مثل ولدك فى تبذُّله واستهتاره ، وصغرِ نفسه وفسولتها[1] ، صهراً لولدى ، ولا عاراً على بيتى » فاستقبلت خشونَتهُ وجفاءَه بصبرٍ واحتمال ، لأن الخوف على ابنى ، شغلنى عن الغضب لنفسى ، وقلت له أواثقٌ أنت مما تقول ، فأدلى إلىَّ بما أقنعنى ، فلم أرَ بدًّا من أن أسلّم له بصواب ما فعل ، وسألتهُ أن لا يَبُتَّ فى أمر الخطبة شيئاً حتى أسافرَ الى باريس وأعودَ منها ويَعلمَ أنى قد عجزت عن أمر ولدى

ذلك ما حملنى على المجىء الى باريس ، وهذه هى قصتى التى جئت أعرضها عليكِ ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتُها عن الناس جميعاً حتى عن ولدى أرمان فانظرى ماذا تأمرين ؟

وهنا أطرق برأسه طويلاً ثم رفعها ، فإذا عبرةٌ تترقرق فى عينيه ، واذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمتهُ ممابه ، وأعظمتُ مصابَه حتى نسيت مصابى بجانبه ، وساد السكون بيننا ساعةً لا يقول لى شيئاً ، ولا أدرى ماذا أقول له ، حتى هدأ ثائره قليلاً فمدّ يدَه الى يدى فأخذها بين ذراعيه ، وعاد الى حديثه يقول

مرغريت : إن حياة ابنى بين يديك فامنحينى إياها تتخذى عندى يداً لا أنساها لك حتى الموت

---

(١) الفسولة الانحطاط وضعف المروءة

إننى لا أستطيع أن أراها تموت بين يدىّ ، ولو تم ذلك لمتُّ على أثرها حزناً وكمداً ، وضمّنا فى يوم واحد قبرٌ واحد

لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ولا يزال أثره باقياً فى نفسى حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى فى ابنتها وصورتها الباقية لى من بعدها

انى أحبها حباً جمّا ، ولا أستطيع أن أراها فى ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة ، فكيف أستطيع أن أراها تعالج سكرات الموت !

إنك لا تعرفينها يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ، ولرحمتها كما أرحمها . ولفديتها بما تستطيعين ، رأفة بها ، وإشفاقاً عليها

إنها جميلة جداً ، وبيضاء مثل الكوكب ، وطاهرة طهارة الملك ، وغريرة غرارة الطفل ، فاسمحى لهذه الحياة الغضة الزاهرة بالبقاء والسعادة ، فانها لا تستحق الشقاء

انها اليوم تعيش بالأمل الذى أودعته قلبها يوم سفرى ، فإن عدتُ اليها بالخيبة ، عدت اليها باليأس القاتل ، والقضاء النازل

أنت تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخلصة فى حبه إخلاصاً عظيماً ، فاصنعى مايصنع المحبون المخلصون ، وضحّى حبك من أجله ومن أجل مستقبله ، فإلاّ تفعلى ذلك من أجله ، فافعليه من أجلى

لقد قلتِ لى إنهُ الرجل الوحيد الذى أحبك لنفسك ، أكثر مما أحبك لنفسه ، فبادليه هذا الحبَّ ، بل كونى خيراً منهُ فيه ، وليكن عزاؤكِ عما تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيداً من بعدك ، وأنك قد أنقذتِ من يد الموت فتاةً مسكينة ، ومن يد الشقاء شيخاً حزيناً

وهنا اختنق صوتهُ بالبكاء فهبط عن كرسيّه وجثا بين يدىّ وقال بنغمة المُشرف المحتضَر

« ارحمينى يا مرغريت ، واشفقى على ضعفى وشيخوختى ، وتصدَّقي علىَّ بمستقبل ولدى ، وحياة ابنتى »

ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً ، فألقى رأسه على كرسيه الذى كان جالساً عليهِ وانفجر باكياً

*
* *

آه لو رأيتَنى يا أرمان فى موقفى هذا ورأيت لوعتى وتفجّعى ودموعى المنهمرة على خدّى انهمارَ الديمة الوطفاء رحمة بأبيك وإشفاقاً عليه !

لقد كان يتكلم فتسيل مدامعى مع حروفه وكلماته ، كأنما هو يُنشد مرثيةً محزنةً أنا المبكيَّةُ عليها فيها

ان العظيم عظيم فى كل شىء حتى فى أحزانه وآلامه ، فاقد

كان يُخيَّل الىَّ وأبوك يبكى بين يدىّ وينتحب ان كل دمعة من دموعهِ تَستنزل غضب الله على الأرض وكل زفرة من زفراته تلتهب بها صفحة السماء

لقد أكبرت فى نفسى جداً أن يجثوَ مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدى فتاة ساقطة مثلى ، واستحييت من ذلك حيث تمنيت معهُ أن لو انشقت الأرض تحت قدمىّ فسُخْت فيها أبداً

وبينَا هو مطرقٌ صامت أخذت أُفكر فيه وفى مصابه ، وفى قصته التى قصها علىَّ ، وفى الشأن الذى لى فيها ، فعلمتُ أنى قد أصبحتُ شؤماً على هذه الأُسرة السعيدة جميعها ، أبيها وابنها وابنتها ، فثقلَتْ نفسى علىَّ ، وسمُج منظَرُها فى عينى ، حتى خُيِّلَ إلىَّ أنها لو كانت حاضرة فى يدى لرميتُ بها من حالق إلى حيث لا يجمعنى وإياها مكان بعد اليوم ، ثم قلتُ فى نفسى : إن حياتى الماضيةَ التى قضيتُها فى الشرور والآثام قد قطعَتْ علىَّ طريقَ الشرف ، فلا حق لى فى أن أُطمع فى حياة الشرفاء ، ولا أن أُنازعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الأثمَ الذى اقترفتهُ فى ماضىَّ قد أثمتهُ وحدى ، فلا بدَّ لى أن أستقلّ بحمل عاقبته دون أن أُلقيَها على عاتق أحد غيرى ، فإن كان مقدَّراً لى أن أموت موتَ النساء الساقطات ، فذلك لأنى امرأة ساقطة ، أو أن أُلاقىَ

فى مستقبل حياتى شقاءً وآلاماً ، فذلك لأن المستقبل نتيجة الماضى وصفحتهُ الثانية

هنا ذكرتك يا أرمان ، وذكرتُ فراقك وكيف أستطيعهُ ، وذكرتُ أنى أنا التى ساتولى قتلَ نفسى بيدى ، لأن الطريقَ التى لا طريقَ غيرها إلى مفارقتك ، وبلوغ رضا أبيك ، أن أُطاوعك وأُغاضبك ، وأظهر أمامك بمظهر الخائنة الغادرة ، وربما اضطُررتُ إلى الاتصال بأحد غيرك على مرأى منك ومسمع ، حتى تنصرفَ عنى انصرافَ يائسٍ مغلوبٍ على أمره ، من حيث لا يكون لأبيك مدخل فى ذلك ، فأكونُ قد جمعتُ على نفسى بين فراقك وغضبك فى يوم واحد ، وذكرتُ أن لا بدَّ لى متى فارقتك ان أعود إلى حياتى الأُولى التى أُبغضها وأمقتها ، لأن الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبيَ الذى أذنبتهُ إليهِ حتى اليوم ، ولأنى فى حاجة الى بَسطةٍ من العيش أستعين بها على معالجة مرضى ، ووفاء دينى ، فدارت هذه الخواطرُ فى رأسى ساعةً ، وطالت دَوْرتُها حتى كادت تَغلبنى على أمرى ، ثم وقع نظرى على وجه أبيك المبلّ بدموعه فتجلدتُ ، وجمعتُ أمرى ، ومضيت قُدُماً لا ألوى على شىء مما ورائى

لقد كان شديداً علىَّ جداً أن أُفارقك يا أرمان ، ولكنْ كان

أشدّ عليَّ منهُ أن أرى أبوك يبكى بين يدىّ ، وأن أكون سبباً في موت أُختك أو شقائها

انى أحب ياأرمان ، وأعرف آلام الحب ولوعته فى النفوس ، ولقد كان يُخيَّل إِليَّ وأبوك يحدثنى عن أُختك وشقائها انى أراها من خلال دموعى طريحةَ فراشها وهى تمدُّ يدَها إِليَّ ضارعةً متوسلةً وتقول : أنقذينى يا سيدتي وارحمى ضعفى وشبابى ، فأجدُ لكلماتها من الأثر فى نفسى مالا يستطيع أن يشعر بهِ أحد فى العالم سواى

انى حُرمت فى مبدأ حياتى سعادةَ الزوجية وهناءَها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيهِ حتى اليومِ ، فلا يَهيج حزنى ، ولا يَستثير كامنَ لوعتى ، مثلُ أن أرى فتاةً بين الناس محرومةً منها مثلى

انى أحب ، وهى تحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداءً عن الأُخرى فلأَمتْ أنا فداءً عنها ، لأنها أُختك ، ولأنها لم تقترف فى حياتها ذنباً تستحق بسببه الشقاء

وكنتُ كلما ذكرتُ أنها ستصبح سعيدة هانئة من بعدى ، وتراءى لى شبحُها وهى لابسةٌ ثوبَ عرسها الأبيض الجميل ، وسائرةٌ إِلى الكنيسة بجانب خطيبها ، طار قلبى فرحاً وسروراً ، وهان عليَّ كل شىء فى سبيل غِبطتها وهنائها

نعم إن الضربةَ التي سأستقبلها شديدةٌ جداً ، لا يقوى عليها قلبي ، ولكني سأحتملها بصبر وسكون ، لأن أباك سيصبح راضياً عني ، ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سرّ ضحيتي ، فتحبني فوق ما أحببتني ، ولأن اختك ستصبح سعيدة مغتبطة بعيشها وحبها ، وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها اللهَ في صلواتِها بالرحمة والرضوان

جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت ساعةً شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيتُ فيها من الآلام ماضيَ ذنوبي وآتيَها ، كما أسألهُ ألاَّ يذيقَ مرارتَها قلبَ امرأة على وجه الأرض من بعدي

قمتُ من مكاني كأنني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعاً ، ومشيتُ الى أبيك كما يمشي الخائن(١) إلى مصرعهِ حتى جثوت بين يديهِ ، وأخذت بيده ، فاستفاق من غَشيتهِ ونظر إليَّ ذاهلاً مشدوهاً فقلت لهُ : أتعتقد يا سيدي انني أُحبُّ ولدك ؟ قال نعم ؟ قلت حبًّا هو منتهى ما تستطيع امرأةٌ أن تُحب ؟ قال نعم ، قلت وأن هذا الحب هو كل آمالي وسعادتي وما أملك في الحياه ؟ قال نعم يا بُنيتي ، قلت قد ضحيتهُ من أجل ابنتك فعُد إليها وبشرها

(١) الخائن الذي حان هلاكه

بسعادة المستقبل وهنائه ، وقل لها : إن امرأةً لا تَعرفك ، ولم تَرَكِ في يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليكِ ، تموت الآن من أجلكِ ، فاسألي الله لها الرحمة والغفران

فتهلل وجهه بشراً وسروراً ، ولم يدَع كلمةً من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إليَّ ؛ وأنساني سرورُه واغتباطهُ ألمَ الضربة التي أصابت كبدي ، واستحال حزني واكتئابي إلى راحة وسكون ، فحمدت الله على أن لم يرَ في وجهي في تلك الساعة ما ينغص عليهِ سرورَه واغتباطه

وهنا شعَرتُ بحركة عند باب الغرفة فالتفتّ فإذا « برودنْسْ » تشير إليَّ بيدها ، فذهبتُ إليها فأعطتني كتاباً جاءَ به رسول البريد فقرأتُ عنوانَهُ فإذا هو بخط المركيز « جان فيليب » فعلمتُ ما يتضمنهُ قبل أن أراهُ ووقع في نفسي أن الله قد أوحى إليَّ بما أفعل ، فذهبتُ مسرعة الى غرفة مكتبي كأنني أخاف أن يعترض لي في طريقي ما يزعزع عزيمتي ، وهنالك قرأتُ الكتاب وكتبتُ لصاحبه في بطاقة صغيرة هذه الكلمة « سأتعشى عندك الليلة » ثم أعطيتها لبرودنْسْ لتلقيها في صندوق البريد ، وعدت إلى أبيك فوجدتهُ حيث تركتهُ ، فقلت له : إن أرمان لا يعلم شيئاً من أمر زيارتك هذه فاكتمْها عنهُ حين تلقاه ،

وسأكتبُ إليهِ كتابَ مقاطعةٍ لا يَشُك فى أنى صاحبةُ الرأى فيهِ ، وأنْ لا يدَ لك فى ذلك ، وسيَعلم اليوم أو غداً انى قد اتصلتُ برجل غيره فيرى أنى قد خنتهُ وغدرت بعهـده فلا يجد له بدًّا من أن يسافر معك قاطعاً رجاءه منى ، وربما تألم لهـذه الصدمة بضعةَ أيام أو بضعةَ أسابيع فلا تحفلْ بذلك ، فسيَبْلَى حبي فى قلبه ، كما يَبْلَى كلُّ حب فى كل قلب ، غـير أن لى عنـدك طَلِبةً واحدةً لا أُريد منك سواها فهـل تسمح لى بها ؟ قال نعم أسمح لكِ بكل شىء ، قلت إنى امرأة مريضة مُشْرِفة ، وإن العلة التى أُكابدها كثيراً ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصُرت حـتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إيَّاه ان تأذن لأَرمان فى اليوم الذى تعـلم فيهِ أنى قد أصبحتُ على باب قبرى أَن يأتينى لأراه وأُودعَهُ الوداع الأخير ، وأَعتذرَ لهُ عن ذنبي الذى أَذنبتهُ إليهِ ، حتى لا أَخسرَ حبَّهُ واحترامهُ حيةً وميتة ، فنظر إلىَّ نظرةً دامعةً وقال : وارحمتاه لكِ يابُنيتى! إنى أَعدك بما أردتِ وأسأل الله لكِ الشفاء والعزاء ، ثم حاول أن يَعرض علىَّ شيئاً من المعونة فأبيتُ ذلك إباءً شديداً ، وقلت له : لم أبع نفسى ياسيدى بيعاً ، ولكننى وهبتُها هبةً ، فأخذ رأسى بين يديهِ وقبلنى فى جبينى قبلةً أبويةً كانت خير جزاء لى على ضحيتى التى ضحيتها وودعنى ومضى

فما أبعدَ إلاَّ قليلاً حتى قمتُ إلى خزانتى فجمعتُ ثيابى وما بقى لى من حلاى ووضعتها فى حقيبتى ، وسافرت مع برودنس إلى باريس ، وذهبتُ إلى منزلى فيها فكتبت إليك فيه ذلك الكتابَ الذى تعلمهُ ، والله يعلم كم سكبتُ من الدموع وكم وقف قلمى بين كل كلمة وما يليها أثناء كتابته حتى أتممتهُ ، فأعطيتهُ لحارس المنزل وأوصيتهُ أن يعطيه لك عند مجيئك ، ثم ذهبت للوفاء بوعد المركيز

أما حياتى مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقصّ عليك منها شيئاً سوى أن أقول لك : إنه لم يرَ فىَّ المرأةَ التى كان يتخيلها ، ويمنّى نفسَهُ بها ، ولم أرَ فيهِ الرجل الذى يؤنسنى ، ويمزج نفسى بنفسه ، فافترقنا ، فأصبحتُ لا أعرف لى فى العالم صديقاً صادقاً ولا كاذباً

هذه قصتى يا ارمان كما هى ، وهذا ذنبى الذى أذنبتهُ اليك ، فهل ترى بعد ذلك اننى خائنة أو خادعة ؟

قلبى يحدثنى اننى سأموت قبل أن أراك ، وأملى يُخيّل الىَّ ان ما فى نفسك من الموْجدة علىَّ لا يستمر إلى ما بعد الموت ، وانك ستعود الى باريس فى الساعة التى ينعانى لك فيها الناعى لتزورَ قبرَ تلك المرأة المسكينة التى تولتْ سعادةَ قلبك وهناءَهُ برهةً طويلة من أيام حياتك ثم خرجتْ من الدنيا فارغة اليد

من كل شيء حتى من حبك وعطفك ، وربما يقع بك الاهتمام بشأنها أن تحاول معرفة ما تمّ لها من بعدك حتى ذهب بها الموت الى قبرها ، فهأنذا اكتب لك هذه المذكرات ، واتركها لك عند برودنس ، لعلك تقرؤها في مستقبل الأيام فتنظر إليها كما تنظر الى كتاب اعتراف مقدس قد ألبسه الموت ثوب الطهارة والبراءة فتصدّق مافيها فتعفو عنى ، فينير عفوك ظلمات قبرى ، ويؤنس وحشة نفسى

***

٣ يناير سنة ١٨٥١

أين أنت يا ارمان ، أنت بعيدٌ عنى جداً ، بعيدٌ بجسمك وبقلبك ، لأنك لم تهمل كتابى الذى كتبتهُ لك ودعوتك فيه لزيارتى وسماع اعترافى الأخير الاّ لأن ما كان فى نفسك من العتب والموجدة علىّ قد استحال الى نسيان وإغفال ، فأصبحت لاتذكرنى كما يذكر المحبُّ حبيبهُ ، ولا تعطف علىّ كما يعطف الصديقُ على صديقهِ ، فليكنْ ما أراد الله ، ولتدم لك تلك السعادةُ التى تنعم بها بين أهلك وقومك ، فانى غير واجدةٍ عليك ، ولا ناقمةٍ منك شيئاً ولا حاملةٍ لك فى نفسى إلاّ الحب والاخلاص والرضا بكل ماتأتى وما تدع

لى عدة أيام لم أرَ فيها أحداً من الناس ، لأن الطبيب منعنى من الخروج ، ولأن أصدقائى الذين كانوا يعرفوننى فيما مضى قد أصبحوا يَقنَعون من زيارتى بارسال بطاقاتهم إلىَّ مع خادمتى، ثم ينصرفون مسرعين كانما يفرُّون من أمرٍ يخيفهم، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعاتِ الطوالَ حتى آذنَ لهم بالمقابلة ، فاذا ظفِروا بها طاروا فرحاً وسروراً ، وان حُرموا منها عادوا آسفين محزونين

ولا أدرى لِمَ لايَقطعون بطاقاتِهم ، كما قطعوا زياراتِهم ، فان كانوا يظنون انهم سيرونني بينهم فى مستقبل الأيام صحيحةَ الجسم ، طيبةَ النفس ، أصلح للمعاشرة والمخادنة كما كانوا يعهدوننى من قبل ، فهم فى ظنهم مخطئون

لقد أحسنوا فيما عملوا ، فانني أصبحت لا آنس بأحد فى العالم سوى نفسى ، ولا آنسُ بنفسى إلا لأني أستطيع متى خلوتُ بها أن أُسائلَها عنك فتُذكّرنى بك وبتلك الأيام السعيدة التى قضيتها معها فى بوجيفال ، وذِكْرَى تلك الايام هى العزاء الباقى لى عن جميع مافقدت وما قاسيت من آلام الحياة

ما كنت أظنّ ياأرمان ان جسم الانسان يحتمل الآلام الى هذا الحد، فلقد تمرّ بى ساعات أعتقد فيها ان الألم الدى أُكابده

انما هو ألم النزع وأنني في الساعة الأخيرة من ساعات حياتي ، فاذا استفقتُ قلتُ في نفسي هذا ألمُ المرض قد عجزت عنهُ ، فكيف أقوى على ألم الموت

على ان نفسي تحدثني أحياناً أنهُ إنْ قُدِّرَ لي أن أراك بجانبي ياأرمان في يوم من أيام حياتي بَرِئتُ من مرضي ، ومَسحَ الله مابي ، وعُدتُ الى راحتي وسكوني ، فهل يقدِّرُ الله لي ذلك ؟

لا أعلم ، فالمستقبل بيد الله ، فليقدرِ اللهُ مايشاء ، وليفعل مايريد

*
* *

٢٤ يناير سنة ١٨٥١

لم أفارق سريري منذ أيام طوال الاّ صباحَ هذا اليوم ، فجلستُ قليلاً بجانب نافذتي ، وأشرفت منها على الحياة ساعةً ، فوقع نظري على كثير ممن كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاَهين مغتبطين ، ولم أرَ بينهم مَن رَفعَ نظرَه الى نوافذ غرفتي مرةً واحدة كأنما يمرون ببيت لايعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل

ماأشدّ وحشتي ، وما أضيق صدري . وما أثقلَ هذا الجدار الذي يدور حولي على نفسي

لاأطيق النظر الى سريري ، لان نفسي تحدثني أنه سيكون

عما قليل سلَّم قبرى ، ولا الوقوفَ أمام مرآتى ، لأنها تحدثنى عن نفسى أسوأ الأحاديث وأشأمها ، ولا الإشرافَ من نافذتى ، لأنها تُذكرنى بحياتى الماضية السعيدة التى لا سبيل إليها اليوم ، فأين أذهبُ وكيف أعيش ؟

لا آكل إلا طعاماً واحداً ، ولا أرى إلاّ منظراً متكرراً ، ولا أسمع إلا صوت طبيبي وخادمتي حينما يسألها عني صباحَ كل يوم ومساءه فتجيبه ، حتى مللتُ وسئمتُ ، وأصبحت أشعر ان نفسى سجينةٌ فى صدرى ، سِجْنَ جسمى فى غرفتى ، وربما مرَّتْ بي ساعاتٌ يقف فيها ذهنى عن التفكير ، وخاطرى عن الحركة ، وينقطعُ ما بينى وبين يومى وأمسي وغدي ، وكلٌّ شيء فى الحياه حتى نفسي

السعال يهدم أركانَ صدري هدماً ، والنوم لا يُلمّ بعينى إلاّ قليلا ، والطبيب يعذبنى بمشارطهِ وضِماداتهِ [1] عذاباً أليما ، وكل يوم أشعر ان نفَسى يزداد ضيقاً ، وبصرى يزداد ظلمة ، وان الحياة تبعد عن نظرى شيئاً فشيئاً ، حتى أكادُ أحسَبُها شبحاً من الاشباح النائية ، فمتى ينقضي عذابى ؟

---

(١) المشارط جمع مشرط بالكسر وهو مايشرط به الجلد لاستفراغ الدم ؛ والضمادات جمع ضمادة وهى العصابة توضع على العضو المجروح أو المكسور

* * *

٣٠ يناير سنة ١٨٥١

سمعت صباح اليوم ضوضاء كثيرة في فناء المنزل فسألتُ برودَنْس ما الخبر ؟ فذهبتْ وعادتْ إليَّ تبكي وتقول : انهم يحجزون أثاث المنزل ياسيدتي . فقلت دعيهم يفعلوا ما يشاءون ، وما هي إلاَّ لحظاتٌ قليلةٌ حتى دخلوا غرفتي متبقِّعين متصايحين ، ولم يمرَّ بخاطر واحد منهم أن يَرفع قبَّعَتَهُ عن رأسهِ احتراماً لصاحبة المنزل ، أو يخفض صوتَهُ إشفاقاً على المريضة المعذبة ، فمشوا يسجّلون كل ما وقع نظرهم عليهِ ، وخفتُ أنْ يسجلوا دفتر مذكراتي فأشرتُ إلى برودَنْس أَنْ تُخفيهِ عنهم ففعلتْ فحمدت الله على ذلك ، ثم وصلوا الى سريرى فطلب أحد الدائنين حجزَهُ وقال إِنهُ ثمين سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهَمهُ الحاجزُ انَّ القانون يستثني الأَسرَّةَ وفُرُشَها ، وألقى في أُذنه كلمة أَحسَبُ انى سمعتهُ يقول له فيها : إنك تستطيع ان تفعل ذلك بعد موتها ، ثم انصرفوا بعد ماتركوا على باب بيتي حارساً لا يفارقهُ ليلَه ونهاره ، فكتبتُ إلى «الدوق موهان» وهي أول مرّة كتبت اليه فيها أَستغفرهُ ذنبيَ الذي أذنبتهُ إليهِ ، وأشكو له ما نالتهُ يد الأَيام مني ، وأستحلفهُ بذكرى ابنته الكريمة عليهِ أن يأتيَ

ليعودني ، ففعل فبكى عند مارآني ، ولا أدرى هل بكائى أو ذكر عند رؤيةِ مصرعى مصرعَ ابنتهِ فى أيامها الأخيرة فبكاها ؟ ثم قضَى بجانب فراشي ساعة مطرقاً صامتاً لا يحدثنى إلا قليلا ؟ ولا يَذكر الماضي بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك فى يد برودَنس عند ذهابهِ بضع أوراق استَبْقتْ بعضَها للنفقة واستعانت بباقيها على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر

لا أستطيع ان اكتب لك اليوم اكثر مما كتبت ، فإن طبيبي ما زال يُلحّ على جسمى بالفصد حتى أوهاه واستنزف دمَه، فأصبحت لا أتحرَّك حركة إلاّ شعرتُ بألم عظيم

*
* *

٢ فبراير سنة ١٨٥١

ان هذا اليوم أسعد أيامى وأهنؤها ، فقد وصل إليَّ من أبيك كتابٌ هذا هو

« سيدتى

إنى أتوجَّع لكِ توجعاً شديداً ، فقد علمتُ بالأمس من بعض الوافدين إلى « نيس » من « باريس » أنكِ مريضةٌ مرضاً شديداً منذ شهرين ، وأنك لا تخرجين من منزلك إلاَّ قليلاً ، فأسألُ اللهَ لك الشفاءَ والعزاء ، وأضرع إليهِ أن يجزيكِ خيراً بما قاسيتِ

من الآلام والأوجاع فى سبيلى وسبيل ابنتى ، وأبشرك ان الله قد قَبِل قُربانك الذى قدمتِهِ إليهِ ، فإن سوسان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يوماً ، وأصبحت هانئةً بحبها وعيشها كما أردتِ لها ، وإنها وان لم تكن تعلم شيئاً من أمر تلك القصة التى نعلمها فقد قلت لها : إن شخصاً من الناس ولم أُسمّه لها قد ضحّى نفسهُ وسعادتهُ فى سبيل سعادتك وهنائك ، فلا تَدَعى الدعاء له فى جميع صلواتك بحسن الجزاء عما فعل والله أعلم به ، فهى لا تزال تدعو لك صباحَها ومساءَها أن يُحسن الله اليك كما أحسنت اليها

أما الكتاب الذى أرسلتِهِ الى أرمان فى أوائل الشهر الماضي فانهُ لم يصل اليهِ الاّ اليوم أو أمس ، لأنهُ مذ فارقكِ وسافر الى نيس لم يستطع البقاء فيها الاّ بضعة أيام ، ثم رحل عنها الى الشرق حزيناً مهموماً من أجلك ، وكنتُ لا أعرف الجهة التى يقيم فيها فلم أستطع أن أُرسله اليه حتى عرفتُها منذ أيام قلائل فأرسلتهُ وأرسلت معه كتاباً أُطلعهُ فيهِ على سر مسألتك وأقول له : إنى لا أرى مانعاً يمنعنى بعد زواج أخته من أن آذن له بالسفر الى باريس والبقاء فيها ما شاء ، وأحسَبُ أنهُ يصل اليكِ فى عهد قريب

أرسلتُ اليك مع كتابى هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تتقبليها منى ، وأن تنظرى اليها بالعين التى تنظر بها الفتاة الى

هـدية أبيها الذي يحبها ، فان فعلتِ أحسنتِ إليَّ بذلك إحساناً عظيما

لي الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك دوفال »

فما قرأتهُ حتى شعرتُ بهزة من السرور في قلبي لم أشعر بمثلها مذ فارقتك حتى اليوم ، فقد علمتُ أن سوسان قد تزوجت ، وذلك ما كنتُ أرجو لها ، وأنك لا تزال تحبني ، وقد كنت أخاف نسيانك أكثر مما أخاف عتبك ، وأنني سأراك عما قريب ، وتلك كل آمالي في الحياة

أما الهدية التي أرسلها اليَّ أبوك فقد نظرتُ اليها بالعين التي أرادها فقبلتُها شاكرة له حامدة ، أحسن الله اليهِ كما أحسن اليَّ

*
* *

٣٠ فبراير سنة ١٨٥١

استطعت أن أنام ليلة الأمس أكثر من كل ليلة ، لان السرور الذي تركه كتابُ أبيك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طبيبي : إنك اليوم خيرٌ منك في كلّ يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فاخرجي في مركبتك الى بعض المتنزَّهات ساعة ثم عودي ، فخرجتُ الى غابات

« الشانزلزيه » فرأيتها زاهرةً بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متهللين ، مغتبطين بسعادةٍ لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأةٌ محرومةٌ منها مثلى ، فلم أحسدهم على نعمتهم التى آتاهم الله ، بل دعوت لهم ببقائها ودوامها ، الاّ أنني حزنت على نفسى حزناً شديداً حينما رأيت أن كثيراً من معارفى الماضين قد مرّوا على مقربة مني ولم يعرفونى ، ورأيت واحداً منهم قد نظر اليّ وقد مرَّ بجانب مركبتى نظر المتخيّل المتوهم ، ثم لم يلبث أن لوَى وجههُ عني ومضي لسبيله ، وقد استقرَّ فى نفسهِ أنه يرى امرأةً غير المرأة التى كان يتوهمها ، فعلمت انى قد تغيرتُ تغيراً عظيما ، وان مرآتى ما كانت تكذبنى حينما كانت تحدثني عن نحولى واصفرارى ، واستحالة صورتى ، بل صدَقتني كما صدَقني الناس

ثم رأيتُ الشمس قد عادت الى حجابها فعدتُ الى منزلى وقد زال من نفسى ذلك الخاطر الذى أحزنني ، وحلّ محله خاطرٌ آخرُ خيرٌ منهُ ، وهو انني سأراك عما قليل ياارمان ، وسينقضى بلقائك عهد بؤسى وشقائى

*
* *

٧ فبراير سنة ١٨٥١

ما أحسبُ أنكَ مُدْرِكي ياارمان ، فقد بلغت بى العلة منتهاها ، وأصبحت لاأجد الراحة فى قيام ولا قعود . ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والاوجاع فى جميع أعضائى ومفاصلى . وكأنَّ حجراً من الأحجار العاتيـة ممتدٌ على صـدرى يمنعني التنفسَ والحركة ، وقد عجزتُ اليوم عن أن أنتقل من سريرى الى مكتبي ، فأمرتُ برودنس أن تأتيني بمحبرتى ودفتري حيث أنا فجاءت بهما إلىَّ ، فأنا الآن أكتب لك وأنا فى فراشي ، فتى أراك ياارمان لأحيا برؤيتك أو أُوَدعك قبل أن أموت ؟

***

١٠ فبراير سنة ١٨٥١

أملى فى الحياة ضعيفٌ جداً ، هاهو الموت يدنو مني رويداً رويداً ، لم تأت إلىّ حتى الساعة ياارمان ، وأظن انى سأموت قبل أن أراك ، ان الموت مخيف جداً يملأ قلبي رعباً وهولا ، لاأعلم كيف أستطيع أن أسكنَ وحدي تلك الحفرةَ الموحشة المظلمة التي لا أنيس لى فيها ولا سمير ، لم أتمتعْ بالحياة طويلاً وكانت كلُّ سعادتى فيها آمالاً وأحلاما ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئاً من آمالى وأحلامي ، ماأحلى الحياةَ وما أمرَّ فراقها ، لم أنلْ منها

نائلاً ولكنني لا أحب أن أتركها ، لقد سعد الذين يُعمّرون في الحياة طويلاً ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذريةً صالحة أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم زمناً أطول مما عاشوا ، أما أنا فاني سأموت في ربيع حياتي ، وسيموت ذكري في الساعة التي أموت فيها وكأنّي لم أعش في الحياة يوماً واحداً ، وا أسفاه على مافرطت في حياتي الماضية ، إنني أدفع اليوم ثمنَ ذنوبي وآثامي أضعافاً مضاعفة ، لقد كنتُ أستطيع أن أقتنع بالمضغة والجرعة ولا أُمدّ عيني الى ماتقصر عنه يدي فلم أفعل ، فهأنذا لا أُسيغ المضغة ولا الجرعة ، ولا أجد السبيلَ إلى العيش على أي صورةٍ من صور الحياة ، أهكذا أخرجُ من الدنيا غريبةً عنها كما دخلتُ فيها لا يحضُر موتي قريب ، ولا يبكي عليّ صديق ؟ أهكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحببتُها فيها وأَصبحتُ على مرحلةٍ واحدةٍ من أَحلامي وآمالي ، آه لو يمهلني الموت قليلاً فربما كنتَ على مقربة مني ياارمان فأنظرَ اليك نظرة واحدة ثم أَموت ، لا أَمل لي في ذلك ، فقد رأَيت طبيبي صباح اليوم يُلقي في أُذن خادمتي وهو خارجٌ من عندي كلمةً فسألتُها عنها فدارتْ حولها ولم تقُلها ، وما أَحسبُها إلاّ تلك الكلمة الهائلة ، لا أكاد ابصر شيئاً مماامامي حتى بياض الصحيفة التي في يدي ، كنتُ قبل اليوم أَنفُثُ الدمَ

وحده ، والآن أنفثُ أفلاذ رئتي مصبوغةً بالدم ، من لى بكأس من السم أشربُها جرعةً واحدة فاستريحَ من هذا العـذاب الذي يساورني ، ولـكن أيّ فائدة لى فى ذلك وهاهو الموت يمشي الىّ بأسرع مما أمشي إليه ، رحمتك اللهمّ وإحسانك ، فأنت وحدك العالم بمقدار ألمي وعذابي . فارحمني وهوّنْ علىّ أمري ، وامنحني إحدى الراحتين

لا أرى شيئاً ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كان هـذه الـكلمات آخر ماتخطه يدى

١٤ فبراير سنة ١٨٥١

لاتحزنْ علىّ كثيراً بعد موتى ياارمان ، فحسبي منك أن تذكرني ولا تنساني ، وأبشرك أنّ الله قد استجاب دعائي الذي دعوتهُ إياه ، فألقى فى نفسى منذ الأمس بَرْدَ الراحة واليقين ، ومحا من قلبي جميعَ مخاوفه ووساوسه ، فعلمتُ أنه قد رضى عني ، وغفر لى ذنبي ، وأصبحت لاأخشى الموت ولا أخاف مابعده ، ولا أجزع من الألم ، ولا أبكي أسفاً على الحياة ، فلا يحزنك أمرى حين تعلمهُ ، وعش سعيداً بين قومك وأهلك ، وأكرمْ أباك فهو خير الآباء ، وأحبِبْ أختك فهى أطهر الفتيات ، وأوصيك خيراً بپرودنسْ فهى فتاة طيبةُ القلب عظيمةُ الإخلاص لي ولك وأخاف أن يتنكّر لها الدهرُ من بعدى

ان الله قد خلق ياارمان لكل روح من الأرواح روحاً أخرى تماثلها وتمازجها ، وتَسعد بلقائها ، وتَشقى بفراقها ، ولكنه قدَّر أن تَضِلَّ كلُّ روح عن أُختها فى الحياة الأولى ، فذلك هو شقاء الدنيا ، وأن تهتدىَ اليها فى الحياة الثانية ، وتلك هى سعادة الآخرة

فان فاتَتْنِي سعادتى بك فى الارض ، فسأنتظرها فى علياء السماء

(وهنا كتبتْ بعض كلمات مضطربة قد محا الدمعُ أكثرها فلم يَبق منها واضحاً بعض الوضوح إلا كلمة «الوداع»)

***

بقية المذكرات

بقلم الخادمة برودنس

١٣ فبراير

لم تستطع مرغريت ياسيدى أن تكتب لك أكثر مما كتبتْ ، لأن الطبيب منعها من الحركة ، ولو أرادتْها لعجزتْ عنها

أتذكر ياسيدى ذلك الجسم الغضّ الناعم الذى كان يموج بالأمس بالنور موْجاً ويُشْرقُ فى بَشرَته إشراق الخمر فى كأسها؟ لقد أصبح اليوم عظماً مجلداً وهيكلاً ماثلا لا يساوي ثمن النظرة اليه

وارحمتاه لها لقد مات كلُّ شيء فيها إلاَّ قلبها وشعورها ، وليتهما ماتا معها ، فانهُ لايعذبها شيءٌ مثل خواطرها وأفكارها

لا يدخل من باب غرفتها داخلٌ حتى ترفعَ نظرَها اليهِ تظنّ أنك قد جئتها ، فاذا دنا منها ورأتهُ أطبقتْ جفنيها على دمعةٍ تنحدر من بينهما بالرغم منها

إنها لا تتكلم كثيراً ، فاذا تكلمت كان أول حديثها « ألم يأت أرمان ؟ » فاذا أجبْتها أنْ لاَ سأَلَتْ عن أمرٍ آخر تتلهّى بهِ ، أو عادت الى صمتها المحزن الطويل

لقد رابها اليومَ أن طبيبها لم يأتها ، فلما أردتُ أن أعتذرَ لها عنهُ لم تصدقنى ، وقالت « الآنَ عرفتُ كلمتهُ التى ألقاها اليكِ بالأمس » فسكتُّ ولم أعرف ماذا أقول لها

***

١٤ فبراير

أصبح اليوم صوتها ضعيفاً جدًّا لا أكاد أسمعهُ ، واظلمَ بصرها فهى تنظر الىَّ ولا ترانى ، وقد أشارت الىَّ فى الصباح مراراً أن أفتح لها نوافذَ الغرفة لتستنشقَ الهواء وتُروّحَ عن نفسها ، ونوافذُ الغرفة مفتوحةٌ يجرى منها الهواء متدفقًا ولكنهُ لا يصل الى صدرها

آه لو أستطيع ياسيدى أن أبيع حياتى لأشترىَ لها بها بضعة أنفاس تتردد فى صدرها، أو بعض سِنات من النوم تأوِى الى جفنها ! فانّ تَنفّسها يؤلمنى ويعذبنى عذاباً شديداً، وقد مرَّت بها ثلاث ليالٍ لم تم فيها لحظةً واحدة

***

١٥ فبراير

بعد صمتٍ طويل لم ننطق فيه بحرف واحد فتحتْ عينيها ونادتنى بصوتها الخافت الضعيف، فدنوتُ منها فقالت لى « أريد الكاهن فأتينى بهِ » ، فعلمتُ أنها قد أصبحتْ على يقينٍ من أمرها، فغالبتُ عبراتى حتى خرجتُ عنها فبكيتُ ماشاء الله أن أفعلَ، ثم ذهبتُ الى الكاهن فتَردد عند ماعرف المرأةَ التى يريد الذهاب اليها، فضَرَعتُ اليهِ وقلت له : ان رحمة الله ياسيدى لايستحقها مثل الآثمين المذنبين ، فأذعن بعد لأْى وجاءَ معى فخلا بها ساعة ثم خرج ، فسألتُهُ أيرحمها الله ياسيدى ؟ قال « إنها عاشت عيش الآثمين، ولكنها ستموت موت المؤمنين » فحمدت الله على ذلك

ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمه واحدة، ولا أرى عضواً من أعضائها يتحرك، الاَّ ما كان من صدرها الذى يترجّح بين الصعود والهبوط

***

١٥ فبراير — ساعة الغروب

إن مرغريت تتعذب كثيراً ياسيدى ، وأَحسَبُ انها تعالج سكرات الموت

لم يقاسِ انسان فى حياته مثلما تقاسيهِ الآن من آلامها وأوجاعها انها تصرخ من حين إلى حين صرخات مؤلمة تذوب لها حبات القلوب

ولقد اشتدّ بها الألمُ الساعةَ فهبت من مكانها صارخةً ، وانتصبتْ على قدميها فى سريرها حتى كادت تسقط عنهُ ، فأدركتُها وأضجعتُها فى مكانها ، ففتحتْ عينيها فسقطتْ منهما دمعتان كبيرتان ، وكأنما أَحستْ بى فاعتنقَتْنى وضمتْنى اليها ضماً شديداً ، ثم مالبثَتْ أن تراخت يدُها وعادتْ الى نزعها وعلاجها

***

١٥ فبراير — نصف الليل

قُضى الأمرُ ومات مرغريت ، ولم يَبقَ منها على سريرها إلاّ جثتها التى ستذهب غداً الى قبرها ، ذلك غايتُها وغايةُ كل حىّ فصبراً على قضاء الله وبلائهِ

لقد هتَفتْ باسمك كثيراً ياسيدى فى ساعتها الأخيرة ،

وكان آخر عهدها بالحياة أنْ نظرَتْ إِلىَّ نظرةً طويلةً مملوءَة حزناً ودموعاً ، ثم حرَكتْ أصبعَها حركةً خفيفةً وأشارت بها الى دفتر مذكراتها الذى كان ملقى بجانبها وقالت « ارمان » كأنما توصينى أن أبلغه اليك ثم أسلَمتْ روحَها

عزيزٌ علىَّ ياسيدتى مالاقيتِ من العذاب قبل موتك ، وعزيز علىَّ أن تموتى ولا تجدى بجانبك من يُغمِضُ عينيك ويُلقى رداءَك عليك سواى ، وفى سبيل الله تلك النفسُ الطاهرة التى ماحملتْ فى حياتها شرًا لمحسن ولا مسيءٍ ، وذلك الصدر الرحبُ الذى كان يسع الدنيا بهمومها وارزائها فلا يضيق بها ، وذلك القلبُ النقىّ الأبيض الذى ما أضمر فى حياته غير الخير والإِحسان ، ولا فاض إِلاّ بالرحمة والحنان

*
* *

بكتْ برودنس بجانب جثةِ سيدتها ما بكتْ، ثم أنارتْ حولَها الشموعَ وبعثت الى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ فى انجيله ، ومشتْ هى الى المكتب فجلستْ بجانبه تكتب آخرَ مذكراتها حتى فرغت منها ، ثمَّ قامت من مكانها فراعَها أن رأت شبحاً ماثلاً على باب الغرفة ، فمشتْ اليهِ فاذا هى ترى ارمان فى لباس السفر ، وقد ألَقى من مكانه على سرير الميتة نظرةً غريبةً

هائلة كتلك النظرة التى تَسبقُ صرعات الجنون ، ثم استردها والقاها عليها وسألها : من هذا المُسجىّ على هذا السرير ؟ فبكت برودنسْ وقالت : مرغريتُ ياسيدى ، فسقطت حقيبته من يده ، وجمد فى مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرّك

ثم اندفع الى سرير الميتة صارخاً يريد أن يلقى بنفسه عليه فأدركتهُ برودنس ووقف الكاهن فى وجهه وقال له : احترمِ الموتَ أيها الفتى ، فاختنقتْ عبراتُهُ فى صدره وارتعد ارتعاداً شديداً وسقط مغشياً عليهِ ، فلم يستفق إلاّ مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير وقال : رحمة بى أيها الناسُ ، فقد فاتنى ان اودعها حيةً ، فائذنوا لى ان اودعها ميتة ، فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع الغِطاءَ عن وجهها وقبلها فى جبينها ، وقال « الوداع يا أعز الناس عندى ، الوداع ياخير فتاة فى الارض ، وأشرف روح فى السماء » ثم أعاد الغِطاءَ على وجهها ، وتراجع عنها ، وأذنهم بحملها

ثم مشى وراء نعشها يبكي وينتحب ، ولم يمش وراء النعش غيره وغير الخادمة برودنسْ والدوق موهان يتوكأ على عصاه ويقول فى ندبهِ وبكائهِ « هأنذا أرى ابنتى تموت أمامي مرّةً أخرى ولا أزال على قيد الحياة » وبعضُ نسوة بائسات من ضحايا تلك الاقدار

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء ، وأصبحت مرغريت رهينةَ قبرها ، وأصبح ارمان طريحَ فراشهِ يقرأ فى مذكراتها ويبكى بكاء اليتيم الثاكل

ثم اشتد بهِ المرض بعد ذلك اشتداداً عظيما فلم ترَ برودنْس بُدًّا من أن تكتب إلى أبيهِ تشرح له سوء حاله فحضر وحضرت معهُ ابنتهُ وزوجها ولبثوا بجانبـهِ شهرا يعللونه ويستشفون لهُ حتى أبَلَّ ونجا من خطره

ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر مرغريت ليودعوها قبل سفرهم فبكوا حولها بكاءً شديداً ، وكان أشدهم بكاء عليها سوسان وان كانت لا تعلم انها تبكى على المرأة التي ضحت نفسها فى سبيلها

ثم تقدَّم المسيو دوفال الى ولده وقال له « أتغفر لى ذنبي اليك ياارمان ؟ » قال نعم يا أبتاه ، لانها غفرتْ لك ذنبكَ اليها ، ثم انصرفوا

***

مرَّت الأيام ، وانقضت الأعوام ، وملت المسيو دوفال ، وسعِد ولده كما أراد له أبوه ، ولكن بقيت بين جنبيهِ لوعةٌ وثابة لا يُروّحها عنهُ كلما ساورتْهُ إلاَّ قراءَة مذكرات مرغريت ، ومحادثة برودنْس عنها ، وزيارة قبرها من حين إلى حين

تم

فهرس العنوان